مختارات

طوق الحمامة في الأُلفَةِ والأُلّاف

تأليف

ابن حزم الأندلسي

اختارها وقدم لها

أحمد رجب شلتوت

الكتاب: مختارات.. طوق الحمامة في الأُلفَةِ والأُلَّاف
الكاتب: ابن حزم الأندلسي
تقديم: أحمد رجب شلتوت
الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

الأندلسي ، ابن حزم
مختارات.. طوق الحمامة في الأُلفَةِ والأُلَّاف / ابن حزم الأندلسي،
تقديم: أحمد رجب شلتوت
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٤٨ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٧ – ٣٥٢ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٥٠٨٤ / ٢٠٢٢

مختارات
طوق الحمامة في الأُلفَةِ والأُلاَّف

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

وأنا أعلم أنه سيُنكر عليَّ بعضُ المُتعصبين عليَّ تأليفي لمثل هذا ويقول: إنه خالف طريقته، وتجافى عن وجهته، وما أُحِلُّ لأحد أن يَظنَّ فيَّ غير ما قصدته، قال الله عز وجل: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ.

علي بن حزم الأندلسي

تقديم

الفقيه والحب

عليّ بن حزم الأندلسي هُوَ أَبُو مُحَمَّد بنُ أَحْمَدَ بنِ سَعِيْدِ بنِ حَزْمِ بْنِ غَالِبِ بْنِ صَالِحِ بْنِ خَلَفِ بْنِ مَعْدَانَ بْنِ سُفْيَانَ بْنِ يَزِيدَ، الفَارِسِيُّ الأَصْل، والقُرْطُبِيُّ مولداً ونشأةً، كَانَ جَدُّهُ يَزِيدُ مَوْلًى لِيَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَخِي مُعَاوِيَةَ، وَكَانَ جَدُّهُ خَلَفُ بْنُ مَعْدَانَ هُوَ أَوَّلَ مَنْ دَخَلَ الْأَنْدَلُسَ برفقة عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّاخِلِ.

وُلِد بقُرطبةَ سَنَةَ ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م، وَكَانَ وَالِدُهُ مِنْ كُبَرَاءِ أَهْلِ قُرْطُبَةَ؛ كان وزيرا فِي الدَّوْلَةِ الْعَامِرِيَّةِ الّتي حَكَمَت الأنْدَلُس بِاسْم الخَلِيفَة الأُمَويّ "هشام المؤيد"، وقد شهد ابن حزم سقوط الدولة العامرية (الأموية) وعاش في عصر (الطوائف) والتي تقسمت فيه الأندلس إلى إمارات وممالك متعددة.

وقد لَحِقَ زوال الدولة العامرية واستيلاء البربر على قرطبة عام ٤٠٠هـ وتعاقُب الفتن فيها؛ أذىً كبيراً بأسرة ابن حزم. ومما زاد الأمر سوءاً وفاة أخيه الأكبر بالطاعون عام ٤٠١هـ، ثم وفاة أبيه عام ٤٠٢هـ، ثمّ زوجتُهُ "نِعَم" التي فُجع بموتها ابن حزم وكتبَ فيها مراثيه.

كل ذلك ولم يبلغ العشرين من عمره حينها؛ وهذه الظروف جعلت ابن حزم يتحمل مسؤولية أسرته، وقد اضطر للنزوح إلى "المريّة" عام ٤٠٤هـ.

وكتب يصف حاله: «ما انتفعتُ بعيشٍ، ولا فارقني الإطراق والانغلاق مذ ذقت طعم فراق الأحبة... ولقد نغّص تذكّري ما مضى كلَّ عيشٍ أستأنِفه. وإنّي لقتيل الهموم في عداد الأحياء، ودفين الأسى بين أهل الدنيا».

وقد توفي ابن حزم – رحمه الله– عن عمر يناهز اثنتين وسبعين عاماً، حيث وافته المنية وهو مُبعَد إلى بادية "لبلة" في الأندلس، عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان، سنة (٤٥٦هـ).

الطوق.. لماذا؟

لم يكن الفقيه الأديب ابن حزم غافلا عما يدور في مجتمعه، وكان مدركا لتفشي ظواهر اجتماعية سلبية في هذا المجتمع، فقرر أن يواجهها بمؤلفات عدة، والزم نفسه بأن يكون مربيا، وله رسائل عدة في هذا المجال منها "مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل"، وأعقبه برسالة أخرى عن الحب، تمثلت في كتابه الأشهر "طوق الحمامة في الأُلفَةِ والأُلَّاف"، وكان يعلم أن هذا المجتمع بكل معايبه ومثالبه لن يتقبل كتابا لفقيه عن الحب.

وقد عبر ابن حزم عن ذلك بين ثنايا الكتاب في غير موضع، لعل أوضحها قوله: "وأنا أعلم أنه سيُنكر عليَّ بعضُ المُتعصبين عليَّ تأليفي لمثل هذا ويقول: إنه خالف طريقته، وتجافى عن وجهته، وما أُحِلُّ لأحد أن يَظنَّ فيَّ غير ما قصدته، قال الله عز وجل: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ"، وتلك شجاعة منه خاصة إذا عرفنا أنه بدأ في

تأليف الكتاب وعمره ست وعشرون سنة خاصة أن ابن حزم يتحدث عن تجربته بصراحة، فحبه عذري عفيف، وهذا ليس بغريب على فقيه، فهو في الأصل إنسان، يحمل مشاعر لا يمكن تجريده منها، كذلك أثرت فيه البيئة التي نشأ فيها، وهي بيئة طبعته على الرقة وحب الجمال.

وهكذا ومنذ ألف عام لم يخجل الفقيه المُحافظ أن يناقش موضوعًا شائكًا كهذا في كتاب مُفرد وعلى طول ثلاثين فصلًا يفصّل بلا حرج الحب بدءًا من ماهيته وعلاماته، ويسهب في فصوله ويفصل كل فصول الحب من الهجر والوصل، والسلو والوفاء؛ ليس هذا فقط بل ويستشهد بقصص واقعية ومنها قصص له شخصيًا، ويعلق على كل قصة بأبيات من الشعر من نظمه.

هكذا يجمع طوق الحمامة بين الحب والسيرة الذاتية، باقترابه من الجانب العاطفي من حياة ابن حزم، والحياة العاطفية لعدد من معاصريه، كما جمع ابن حزم في كتابه ما بين الفكرة بمفهومها الفلسفي وما بين الواقع التاريخي.

وقد حرص ابن حزم على الدعوة للتحلي بحسن الخلق، والبعد عن المعصية، وتنبع الأخلاق عند ابن حزم من الدين. ويتجلى أثر الدين فيما يطرحه ابن حزم مما يتعلق بالحلال والحرام فمقياس الأخلاق الدين ولهذا قال في مقدمة الكتاب قائلا: "ومنها بابان ختمنا بهما الرسالة وهما باب الكلام في قبح المعصية وباب فضل التعفف ليكون خاتمة إيرادنا وآخر كلامنا الحض على طاعة الله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". ففي باب التعفف يحض على تجنب المعصية والبعد عن الفاحشة

فيقول: "من أفضل ما يأتيه الإنسان في حبه، التعفف وترك ركوب المعصية والفاحشة".

لقد ربط ابن حزم الأندلسي في كتابه "طوق الحمامة" عاطفة المحبة التي تربط الرجل بالمرأة، بالأخلاق؛ بل إنه ربط بالأخلاق كل ما يصدر عن الإنسان من مشاعر وأفعال وأفكار. وهو يوضح في تقديمه لكتابه أسباب تأليفه فيقول: "وكلفتني أعزك الله أن أصنف لك رسالة في صفة الحب وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة" فعن العنوان الذي اختاره لرسالته هو " في الألفة والألاف"، يعني أنه تجاوز ما كلفه به صديقه لأن الألفة كلمة أعم من الحب، تشير إلى الحديث النبوي الشريف حول الأرواح، وأن ما توافق منها ائتلف.

وبسبب هذه العمومية نجده أحياناً يخرج فيما يورده من أمثلة عن دائرة العشق، فرسالة " طوق الحمامة " بدأت تسلية لصديق، وقد اعتمد ابن حزم على تجاربه الذاتية، والملاحظة والتحليل النفسي، لاستخلاص النتائج، وكان هذا المنهج جديد تماما بالنسبة لمؤلفي الكتب خصوصا عن الحب، كما أكسب الكتاب قدرا كبيرا من المصداقية. ويذكر الدكتور طه حسين سببا إضافيا لتأليف الكتاب فهو يرى أن ابن حزم انشغل طوال حياته بالحب كما انشغل بالفقه والتفسير.

واختار الفقيه لرسالته عنوانا غريبا هو "طوق الحمامة"، يقول عنه أبو منصور الثعالبي: "طوق الحمامة يضرب مثلاً لما يلزم ولا يبرح ويقيم ويستديم".

فهل هذا هو المعنى الذي أراده ابن حزم حين اختار هذه التسمية؟ أم

أن طوق الحمامة في العنوان كناية عن استلهام جمال الطوق لأنه حلية متميزة عن سائر لون الحمامة. فالعنوان يوحي بأن الحب كالطوق، في أعناق المحبين، لا يمكن له أن يبرح قلوبهم كالطوق الملازم للحمامة.

وقد قيل أن كتاب "طوق الحمامة في الألفة والألاف" هو أدق ما كتب العرب في دراسة الحب ومظاهره وأسبابه. حيث "جرؤ الإمام على دراسة الحب والحديث عنه مباشرة، محاولا تعريف أصوله، وتحليلً مظاهره، ونفوس المحبين ودوافعهم، كما تحدث عن نفسه في صراحة العالم الحق الذي يبحث عن الحقيقة، فيلاحظ نفسه ومن حوله، ويستخلص من كل ذلك نتائجً هي أقربً إلى النظريات النفسية".

رحلة المخطوط:

اقترب ابن حزم في كتابه من كل ما يعتقده العوان محرّما، وكذلك من كل ما قد يظنه البعض غير لائق لمثل من هم في رفعته ومقامه. فظل فالكتاب بمثابة الهفوة حتى في نظر الأزمنة والأقدار لعالم في مقام ابن حزم الأندلسي، فتجاهلته المكتبات وكأنه سقط سهوا، إذ كان في حكم الكتب المفقودة في القرون المتأخرة، فلم يذكره صاحب كشف الظنون، ولا البغدادي في تذييله عليه، حتى اكتشفه عام ١٨٤١ المستشرق الهولندي رينهارت دوزي، حيث عثر على نسخته الوحيدة في مكتبة جامعة ليدن بهولندا، فعكف على دراستها وأفاد منها في كتابه "تاريخ مسلمي الأندلس" الذي نشره عام ١٨٦١.

ويذكر المستشرقون أن تلك النسخة وصلت في عام ١٦٦٥ إلى

مكتبة جامعة ليدن، وقيل أنه في منتصف القرن السابع عشر توفي حاجي خليفة الذي كان يملك واحدة من أكبر مكتبات الأستانة، وكان يومها المستشرق الهولندي فون وارنر سفيرا لبلاده في الأستانة عاصمة الخلافة العثمانية، فاشترى مقتنيات حاجي خليفة من الورثة، وكان من بينها مخطوط «طوق الحمامة»، الذي استقر في مكتبة ليدن بهولندا، لمدة ١٧٥ عاماً، إلى أن جاء مطلع القرن التاسع عشر، حيث قام المستشرق الهولندي رينهارت بإصدار أول طبعة لفهرس المخطوطات العربية في جامعة ليدن، عرف العالم من خلالها مخطوطة «طوق الحمامة» وفي عام ١٩١٤ قام المستشرق الروسي بتروف بنشر النص العربي لطوق الحمامة كاملا.

وهذه الطبعة هي أصل الطبعات التي جاءت بعدها؛ حيث طبع الكتاب من جديد في عام ١٩٣٠ في مكتبة عرفة بدمشق، ثم صدرت الطبعة الثالثة عام ١٩٤٩ بالجزائر، وفي عام ١٩٥٠ طبعت النسخة الرابعة في القاهرة، ثم تعددت طبعاته وتحقيقاته، وأشهرها تحقيق الدكتور الطاهر أحمد مكي الذي أصدره في عن دار المعارف المصرية عام ١٩٧٥، ثم عن دار الهلال في١٩٩٣، وهو نفس العام الذي صدر فيه الكتاب في بيروت بتحقيق الدكتور إحسان عباس. وعن هاتين النسختين أعددت هذه المختارات.

وقد ترجم "طوق الحمامة" إلى العديد من اللغات العالمية، وقد زعم المستشرق دوزي إن الغزل العفيف والفكر الراقي الموجودان في الكتاب لا تعرفهما الأخلاق العربية ولا الدين الإسلامي وأن ابن حزم ورثه من أجداده المسيحيين، وقد رفض المستشرق اسين بلاثيوس هذا الرأي وفنده في دراسة له عن ابن حزم.

المرأة في طوق الحمامة:

فقد ابن حزم أمه وهو طفل، فقامت نسوة القصر بتربيته وتعليمه القراءة والكتابة، وتحفيظه القرآن والأشعار، فنشأ وفي نفسه تقدير كبير للمرأة، شوق للأم التي حرم من حنانها، واعتراف بفضل نسوة القصر اللواتى حاولن تعويضه عن فقدها، والقارىء لتراث ابن حزم يلحظ ذلك، فقد شغلت المرأة حيزا كبيرا من اهتمامه، حتى أنه خصص واحدة من رسائله للمرأة وهي رسالة في أمهات الخلفاء، تضمنت أسماء الأمهات وتراجم مختصرة لهن ابتداء من السيدة آمنة أم الرسول وانتهاء بأم الخليفة المستكفي، وفي كتابه "العروس في تاريخ الخلفاء" لم يذكر خليفة إلا وذكر أمه وزوجته وابنته، وقد قال عن نفسه : " ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعرفه غيري، لأني ربيت في حجورهن ونشأت بين أيديهن".

وهذا جعله منذ نشأته عارفا بطبائعهن، وفي طوق الحمامة كشف عن واقع الحياة الاجتماعية في الأندلس، وإن اقتصر غالبا على الطبقة الغنية المتصلة بالحكام و المترددة على قصورهم، سواء كانوا من أصحاب القصور أو ممن يخدمون في القصور، وكادت تغيب عنه أخبار الطبقة الوسطى ممن لا يمتلكون قصورا ولا يعملون فيها.

ويظهر من الكتاب ميل الأمراء والأغنياء إلى اقتناء الجواري، وقد أدت كثرة الإقبال عليهن إلى زيادة المعرفة بأجناسهن وتعدد المطلوب منهن، فكانت البربرية للذة والتركية لإنجاب الولد والرومية لتدبير الشئون المالية، والزنجية للرضاعة والعراقية للطرب والغناء، كما يتضح من الكتاب تمتع النساء بعامة والجواري بخاصة بقدر كبير من الحرية في مخالطة الرجال

والدخول إلى مجالسهم، لا سيما المغنيات.

طوق الحمامة والتراث الغربي:

للدكتورة سيزا قاسم كتاب مهم عن طوق الحمامة، ختمته بباب عن ابن حزم والتراث الغربي، أكدت في بدايته على أن الحب احتل مكانا متميزا في الأدب العربي شعرا ونثرا، على العكس من تراث الأدب الغربي، ولمست سيزا قاسم في كتابها خيطا رفيعا يربط طوق الحمامة بالنص الأفلاطوني عن الحب في محاورة المأدبة، وهي في الفصل الأخير من كتابها "طوق الحمامة لابن حزم الاندلسي.. تحليل ومقارنة"، تحاول أن تتبع الأفكار التي كانت شائعة في التراث الغربي عن الحب، فاختارت للمقارنة أربعة كتب شبيهة بالطوق من حيث أنها بقلم كاتب واحد، وهي في جوهرها نابعة عن تجربة شخصية، كما أنها مثلت علامة فارقة في الثقافة التي أنتجتها.

وهذه الكتب الأربعة هي: كتاب"الراهب" أندرياس كابيلانوس عن الحب الصادر باللاتينية في فرنسا في القرن الثاني عشر الميلادي، وكتاب "الحياة الجديدة" لدانتي الصادر في إيطاليا في القرن الثالث عشر، وكتاب "الحب المحمود" للراهب خوان رويث، وصدر في إسبانيا في القرن الرابع عشر، وكتاب ستاندال "الحب" الصادر في فرنسا في القرن التاسع عشر.

فمثلا يرى أندرياس كابيلانوس أن الحب العنيف وليس العفيف هو القوة التي ترفع العاشق إلى منزلة النبل فهو مصدر جميع فضائل الرجولة وهذه فكرة لا وجود لها في تراث الإغريق أو الرومان الذي تقوم عليه

الحضارة الأوروبية وعندما يخضع العاشق للمحبوبة فتغدو سيدة عليه يأتمر بأمرها، فإن ذلك يعطي المرأة دوراً ومنزلة لا عهد لأوروبا به قديماً أو حتى في العصور الوسطى.

ولكن مفهوماً جديداً للحب ظهر في بدايات القرن الثاني عشر في جنوب فرنسا أدى إلى تغيير الموقف من المرأة وبخاصة بين أفراد الطبقة الأرستقراطية امتد إلى الطبقات الفقيرة بعد ذلك. ومثل «صدر الرسالة» في «طوق الحمامة» يبدأ كتاب «فن الحب» للراهب الفرنسي بمقدمة، مثلا يخاطب ابن حزم صديقه الأثير الذي كتب له من «المريّة» قائلاً: «وكلفتني -أعزك الله – أن أصنف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة»..

ويقول الراهب الفرنسي في مقدمة كتابه: «أنا مدفوع بالإلحاح المستمر من صديقي المحترم «والتر» أن أفسّر بكلماتي وأعلّم بكتاباتي كيف يمكن الحفاظ على حالة حب بين محبين اثنين، وكيف يمكن لأولئك الذين ليسوا في حالة حب أن يتجنبوا سهام كيوبيد»..وفي كتاب الراهب الفرنسي أوجه شبه عديدة بين النهجين والمعاني والأفكار، ثمة مواقف وآراء جديدة عن الحب الدنيوي التي حملها الشعراء التروبادور.

وأما خوان رويث بكتابه الحب المحمود فيعد من أكثر شعراء التروبادور تأثرا بالثقافة العربية عموما، وبكتاب "طوق الحمامة" خصوصا ، ولد في الجانب الإسلامي من الأندلس، وكان ابنا غير شرعي لرجل ثري من بالنثيا، يدعى أرياس جونثالث. وقد أمضى والده خمسا وعشرين سنة في

الأسر عند المسلمين، وخلال فترة أسره عرض عليه سيده الزواج بجارية مسيحية كانت عنده، فتزوجها، وأنجب منها عدة أولاد . منهم خوان رويث الذي عين كاهنا لمدينة "سيوينثا " ولم يتعد الستة عشر عاما، ثم بعد ذلك كاهنا لقرية هيتا. وهناك ألف كتاب "الحب المحمود" سنة ألف وثلاثمائة وثلاثين، وبسببه قضى في السجن عدة سنوات.

والكتاب قصيدة طويلة تزيد عن ألف وسبعمائة مقطع شعري ، تدور حول الحب الإنساني في أسمى صوره وحالاته ، وهو معراج من الدنيوي إلى الديني، من الشهوة الدنيوية إلى غرض ضبط السلوك، هكذا تخطى كاهن هيتا نظرة المجتمع الأوربي للمرأة في العصور الوسطى وأشاد في كتابه بطابع الحب العفيف وسلطان الحب على النفوس.

وقد قيل أن خوان رويث في كتابه الحب المحمود صبغ كتاب طوق الحمامة بصبغة مسيحية، ومزج فيه بين البهجة والبعد التعليمي الإرشادي، وهي أدلة قاطعة على أن خوان رويث عاش في ظل الحياة الأدبية الإسلامية وتشبع بها.

سمات قصصية في طوق الحمامة:

تتألف بنية الطوق من مجموعة من القصص لكل قصة بطلُها وشخصياتها وأحداثها، فالبنية متنوعة متعددة داخل إطارً موحد، وتأتي كل قصة من هذه القصص موجزةً مكثفة الأحداث حتى تتيح مساحةً لقصةً أخرى، ومن ثم فنحن إزاء بنيةً قصصية تقترب من نموذج القصة القصيرة وتمهد له، فمثلا قصة الرمادي مع جارية تسمى خلوة تدور حول الحب من أول نظرة، وقصة ابن

حزم مع فتاة أحبها تدعى نعم تعالج ألم الفراق بين المحبين.

ويبين في القصتين خصائص القصص القصيرة، فالقصة تدور بين عدد محدود من الشخصيات المحب والمحبوبة، وفي مكان محدد محدود حيث شارع من شوارع قرطبة، وفي زمن قصير هو زمن لقائهما وحديثهما المختلس معا، فضلا عما تحويه القصة من حوار بين شخصياتها، وما تحويه من ملمح العقدة والصراع المتمثل في كيفية الوصل مرة أخرى، على هذا النحو فإن قصص الطوق "إما لوحاتٌ قصصية تعتمد على تصوير الموقف وإبرازه بالإيحاء عن طريق الصياغة الجيدة، أو قصص قصيرة توفرت فيها تقنيات القص من شخصيات، وحبكة، ووصف، وحوادث، ومقدمة ونهاية".

وأخيرا فقد حرصت فيما يلي من مختارات أن تكون ممثلة لكل فصول الكتاب، وجاءت على نفس الترتيب الذي رتبه ابن حزم لكتابه، ولا تغني المختارات أبدا عن قراءة الكتاب كاملا، بل هي تذكير به ودعوة لقراءته، والإفادة من تجربة الفقيه ابن حزم وشجاعته وتحليه بروح المسئولية تجاه مجتمعه.

أحمد رجب شلتوت

تقديم ابن حزم لكتابه

بِسْمِ الله الرَّحمَنِ الرَّحِيم وبه نستعين

قال أبو مُحَمَّد عفا الله عنه: أفضل ما أبتدئ به حمد الله عزَّ وجلَّ بما هو أهله، ثم الصلاة على محمدٍ عبدِه ورسوله خاصةً، وعلى جميع أنبيائه عامةً، وبعد.

عصمنا الله وإياك من الحيرة، ولا حمَّلنا ما لا طاقة لنا به، وقيَّض لنا من جميل عونه دليلًا هاديًا إلى طاعته، ووهبنا من توفيقه أدبًا صارفًا عن معاصيه، ولا وَكَلنا إلى ضعف عزائمنا، وخَوَر قُوانا، ووهاء بِنْيَتنا، وتلدُّد آرابنا، وسوء اختيارنا، وقلَّة تمييزنا، وفساد أهوائنا؛ فإن كتابك وردني من مدينة المريَّة إلى مسكني بحضرة شاطِبةَ تَذْكُر من حسن حالك ما يسرُّني، وحَمدتُ اللهَ عز وجل عليه، واستدمتُه لك، واستزدتُه فيك، ثم لم ألبثْ أن اطلع عليَّ شخصُك، وقصدتني بنفسك، على بُعد الشُّقة، وتنائي الديار، وشَحط المزار، وطول المسافة، وغَوْل الطريق. وفي دون هذا ما سلَّى المشتاق ونسَّى الذاكر إلا من تمسَّك بحبل الوفاء مثلك، ورعى سالف الأذمة، ووكيد المودات، وحق النَّشأة ومحبة الصبا، وكانت مودته لله تعالى.

ولقد أثبت الله بيننا من ذلك ما نحن عليه حامدون وشاكرون، وكانت معانيك في كتابك زائدة على ما عهدته من سائر كتبك، ثم كشفت إليَّ بإقبالك غرضك، وأطلعتني على مذهبك، سجيةً لم تزل علينا من مشاركتك لي في حلوك ومرك، وسرك وجهرك، يحدوك الودُّ الصحيح الذي

أنا لك على أضعافه، لا أبتغي جزاءً غير مقابلته بمثله.

وكلَّفتني أعزَّك الله أن أصنِّف لك رسالةً في صفة الحب ومعانيه، وأسبابه وأعراضه، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة لا مُتزيِّدًا ولا مفننًا، لكنْ مُوردًا لما يحضُرني على وجهه وبحسب وقوعه، حيث انتهى حفظي وسَعة باعي فيما أذكره، فبدرتُ إلى مرغوبك. ولولا الإيجاب لك لما تكلَّفته، فهذا من الفقر، والأَوْلى بنا مع قِصر أعمارنا ألَّا نَصرفها إلا فيما نرجو به رَحْب المُنقلب وحُسن المآب غدًا.

وإن كان القاضي حمام بن أحمد حدَّثني عن يحيى بن مالك عن عائذ، بإسناد يرفعه إلى أبي الدرداء أنه قال: «أجمُّوا النفوس بشيء من الباطل ليكون عونًا لها على الحق.» ومن أقوال الصالحين من السلف المرضيِّ: «مَن لم يحسن يتفتَّى لم يحسن يتقوَّى.» وفي بعض الأثر: «أريحوا النفوس؛ فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد.»

والذي كلَّفتني لا بد فيه من ذكر ما شاهدتْه حضرتي، وأدركته عنايتي، وحدَّثني به الثقات من أهل زمانه، فاغتفرْ لي الكناية عن الأسماء؛ فهي إما عورة لا نَستجيز كشفها، وإما نُحافظ في ذلك صديقًا ودودًا، ورجلًا جليلًا.

وبحسبي أن أُسمي من لا ضرر في تسميته، ولا يَلحقنا والمسمَّى عيبٌ في ذكره، إما لاشتهارٍ لا يُغني عنه الطيُّ وتركُ التبيين، وإما لرضًى من المُخبَر عنه بظهور خبره وقلةِ إنكارٍ منه لنقله.

وسأورد في رسالتي هذه أشعارًا قلتُها فيما شاهدته، فلا تنكر أنت ومن رآها عليَّ أني سالكٌ فيها مسلك حاكي الحديث عن نفسه، فهذا مذهب

المتحلِّين بقول الشعر، وأكثر من ذلك فإنَّ إخواني يجشِّموني القولَ فيما يَعْرِض لهم على طرائقهم ومذاهبهم. وكفاني أني ذاكر لك ما عَرض لي مما يشاكل ما نحوتُ نحوه وناسبُه إليَّ.

والتزمت في كتابي هذا الوقوفَ عند حدك، والاقتصارَ على ما رأيتُ أو صحَّ عندي بنقل الثقات، ودعني من أخبار الأعراب والمتقدمين؛ فسبيلُهم غير سبيلنا، وقد كثرت الأخبار عنهم، وما مذهبي أن أنضي مطيَّة سواي، ولا أتحلَّى بحلي مستعار. والله المستغفَر والمستعان لا ربَّ غيره.

باب

وقسمت رسالتي هذه على ثلاثين بابًا، منها في أصول الحب عشرة؛ فأولها هذا الباب، ثم باب في علامات الحب، ثم باب فيه ذكر من أحب في النوم، ثم باب فيه ذكر من أحب بالوصف، ثم باب فيه ذكر من أحب من نظرة واحدة، ثم باب فيه ذكر من لا تصح محبته إلا مع المطاولة، ثم باب التعريض بالقول، ثم باب الإشارة بالعين، ثم باب المراسلة، ثم باب السفير.

ومنها في أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة اثنا عشر بابًا، وإن كان الحب عَرَضًا والعرض لا يحتمل الأعراض، وصفةً والصفةُ لا تُوصف؛ فهذا على مجاز اللغة في إقامة الصفة مقام الموصوف، وعلى معنى قولنا: وجودنا عرضًا أقل في الحقيقة من عرض غيره، وأكثر وأحسن وأقبح في إدراكنا لها، علمنا أنها متباينة في الزيادة والنقصان من ذاتها المرئية والمعلومة؛ إذ لا تقع فيها الكمية ولا التجزي، لأنها لا تشغل مكانًا، وهي: باب الصديق المساعد، ثم باب الوصل، ثم باب طي السر، ثم باب الكشف والإذاعة، ثم باب الطاعة، ثم باب المخالفة، ثم باب من أحب صفةً لم يُحب بعدها غيرها مما يخالفها، ثم باب القنوع، ثم باب الوفاء، ثم باب الغدر، ثم باب الضنى، ثم باب الموت.

ومنها في الآفات الداخلة على الحب ستة أبواب، وهي: باب العاذل، ثم باب الرقيب، ثم باب الواشي، ثم باب الهجر، ثم باب البين، ثم باب السلو.

ومن هذه الأبواب الستة بابان لكل واحد منهما ضد من الأبواب المتقدمة الذكر، وهما: باب العاذل، وضده باب الصديق المساعد؛ وباب الهجر، وضده باب الوصل؛ ومنها أربعة أبواب لا ضد لها من معاني الحب، وهي: باب الرقيب، وباب الواشي، ولا ضد لهما إلا ارتفاعهما. وحقيقة الضد ما إذا وقع ارتفع الأول، وإن كان المتكلمون قد اختلفوا في ذلك. ولولا خوفنا إطالة الكلام فيما ليس من جنس الكتاب لتقصيناه.

وباب البين وضده تصاقب الديار؛ وليس التصاقب من معاني الحب التي نتكلم فيها، وباب السلو، وضده الحب بعينه؛ إذ معنى السلو ارتفاع الحب وعدمه.

ومنها بابان ختمنا بهما الرسالة؛ وهما: باب الكلام في قبح المعصية، وباب في فضل التعفف، ليكون خاتمةَ إيرادنا وآخرَ كلامنا الحضُّ على طاعة الله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فذلك مُفترضٌ على كل مؤمن. لكنا خالفنا في نَسق بعض هذه الأبواب هذه الرُّتبة المقسمة في دَرج هذا الباب الذي هو أول أبواب الرسالة، فجعلناها على مباديها إلى منتهاها واستحقاقها في التقدم والدرجات والوجود، ومن أول مراتبها إلى آخرها، وجعلنا الضد إلى جنب ضده؛ فاختلف المساق في أبواب يسيرة. والله المستعان.

وهَيْئتُها في الإيراد أولُها هذا الباب الذي نحن فيه، وفيه صدر الرسالة، وتقسيم الأبواب، والكلام في باب ماهية الحب، ثم باب علامات الحب، ثم باب من أحب بالوصف، ثم باب من أحب من نظرة واحدة، ثم

باب من لا يحب إلا مع المطاولة، ثم باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها، ثم باب التعريض بالقول، ثم باب الإشارة بالعين، ثم باب المراسلة، ثم باب السفير، ثم باب طي السر، ثم باب إذاعته، ثم باب الطاعة، ثم باب المخالفة، ثم باب العاذل، ثم باب المساعد من الإخوان، ثم باب الرقيب، ثم باب الواشي، ثم باب الوصل، ثم باب الهجر، ثم باب الوفاء، ثم باب الغدر، ثم باب البين، ثم باب القنوع، ثم باب الضنى، ثم باب السلو، ثم باب الموت، ثم باب قبح المعصية، ثم باب فضل التعفف.

الكلام في ماهية الحب

الحب، أعزك الله، أوله هَزل وآخره جِد، دقَّت معانيه لجلالتها عن أن تُوصف، فلا تُدرك حقيقتها إلا بالمعاناة، وليس بمُنكَر في الديانة، ولا بمحظور في الشريعة؛ إذ القلوب بيد الله عز وجل. وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير، منهم بأندلسنا عبد الرحمن بن معاوية لدَعجاء، والحَكَم بن هشام، وعبد الرحمن بن الحكم وشغفهُ بطروب أُم عبد الله ابنه أشهرُ من الشمس، ومُحَمَّد بن عبد الرحمن وأمره مع غزلان أم بنيه عثمان والقاسم والمطرف مَعلوم، والحكم المستنصر وافتتانُه بصبح أم هشام المؤيَّد بالله وامتناعُه عن التعرُّض للولد من غيرها، ومثل هذا كثير.

ولولا أن حقوقهم على المسلمين واجبة – وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزمُ وإحياء الدين، وإنما هو شيء كانوا ينفردون به في قُصورهم مع عيالهم فلا ينبغي الإخبار به عنهم – لأوردتُ من أخبارهم في هذا الشأن غيرَ قليل.

وأما كِبار رجالهم ودعائم دولتهم فأكثر من أن يُحصَوا، وأحدثُ ذلك ما شاهدناه بالأمس من كلف المظَفَّر بن عبد الملك بن أبي عامر بواحدة، بنت رجل من الجباءين، حتى حمله حُبُّها أن يتزوجها، وهي التي خَلف عليها بعد فناء العامر بن الوزير عبد الله بن مَسلمة، ثم تزوجها بعد قتلِهِ رجلٌ من رؤساء البربر.

وقد اختلف الناس في ماهيته وقالوا وأطالوا، والذي أذهب إليه أنه

اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع، لا على ما حكاه محمد بن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة: الأرواح أُكَرٌ مقسومة، لكنْ على سبيل مناسبة قواها في مقرِّ عالمها العلوي ومجاورتها في هيئة تركيبها.

وقد علمنا أن سر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال. والشكل دأبًا يستدعي شكله، والمِثْل إلى مِثْله ساكن، وللمُجانسة عملٌ محسوس وتأثير مشاهد، والتنافر في الأضداد والموافقة في الأنداد والنزاع فيما تَشابه موجود فيما بيننا، فكيف بالنفس وعالَمُها العالَمِ الصافي الخفيف، وجوهرها الجوهر الصعَّاد المعتدل، وسِنْخها المهيَّأ لقَبول الاتفاق والمَيل والتَّوق والانحراف والشهوة والنفار!

كل ذلك معلوم بالفطرة في أحوال تصرُّف الإنسان فيسكن إليها، والله عز وجل يقول: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا؛ فجعل علَّة السكون أنها منه. ولو كان علةُ الحب حُسن الصورة الجسديَّة لوجب ألَّا يُستحسن الأنْقصُ من الصورة، ونحن نجد كثيرًا ممن يُؤثر الأدنى ويَعلم فضلَ غيره ولا يجد محيدًا لقلبه عنه، ولو كان للمُوافقة في الأخلاق لَمَا أحب المرء من لا يساعده ولا يُوافقه؛ فعلِمْنا أنه شيء في ذات النفس.

وربما كانت المَحبة لسبب من الأسباب، وتلك تفنى بفناء سببها؛ فمن ودَّك لأمر ولَّى مع انقضائه، ومما يؤكِّد هذا القول أننا علمنا أن المحبة ضُروب، فأفضلها محبَّة المتحابِّين في الله عز وجل؛ إما لاجتهاد في العمل،

وإما لاتفاق في أصل النِّحلة والمذاهب، وإما لفضل عِلْم يُمنحه الإنسان.

ومحبة القرابة، ومحبة الألفة والاشتراك في المطالب، ومحبة التصاحب والمعرفة، ومحبة البر يضعه المرء عند أخيه، ومحبة الطمع في جاه المحبوب، ومحبة المتحابَّيْن لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره، ومحبة بلوغ اللذة وقضاء الوطر، ومحبة العشق التي لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس.

فكل هذه الأجناس منقضية مع انقضاء عللها، وزائدة بزيادتها، وناقصة بنقصانها، متأكدة بدنوها، فاترة ببعدها، حاشا محبة العشق الصحيح المُمكن من النفس؛ فهي التي لا فناء لها إلا بالموت. وإنك لتجد الإنسان السالي برغمه، وذا السِّن المتناهية إذا ذكَّرته تذكر وارتاح وصبا، واعتاده الطرب، واهتاج له الحنين.

ولا يعرض في شيء من هذه الأجناس المذكورة، مِن شُغل البال والخَبَل والوسواس، وتبدُّل الغرائز المركبة، واستحالة السجايا المطبوعة، والنُّحول والزفير وسائر دلائل الشجا؛ ما يعرض في العشق؛ فصحَّ بذلك أنه استحسان رُوحاني، وامتزاج نَفساني، فإن قال قائل: لو كان هذا كذلك لكانت المحبَّة بينهما مستوية؛ إذ الجزآن مشتركان في الاتصال وحظهما واحد.

فالجواب عن ذلك أن نقول: هذه لَعمري معارضة صحيحة، ولكنَّ نفس الذي لا يحب من يُحبه مكتنفةُ الجهات ببعض الأعراض الساترة والحُجب المحيطة بها من الطبائع الأرضية، فلم تُحس بالجزء الذي كان متصلًا بها قبل حلولها حيث هي، ولو تخلَّصت لاستويا في الاتصال والمحبة.

ونفس المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يشركها في المجاورة، طالبةٌ له، قاصدة إليه، باحثة عنه، مشتهية لملاقاته، جاذبة له لو أمكنها كالمغناطيس والحديد، قوة جوهر المغناطيس المتصلة بقوة جوهر الحديد لم تبلغ من تحكمها ولا من تصفيتها أن تقصد إلى الحديد على أنه من شكلها وعنصرها، كما أن قوة الحديد لشدتها قصدت إلى شكلها وانجذبت نحوه؛ إذ الحركة أبدًا إنما تكون من الأقوى، وقوة الحديد متروكة الذات غير ممنوعة بحابسٍ، تطلب ما يشبهها، وتنقطع إليه، وتنهض نحوه بالطبع والضرورة، وبالاختيار والتعمُّد.

وأنت متى أمسكت الحديد بيدك لم ينجذب؛ إذ لم يبلغ من قوته أيضًا مغالبةَ المُمسك له مما هو أقوى منه. ومتى كثرت أجزاء الحديد اشتغل بعضها ببعض، واكتفت بأشكالها عن طلب اليسير من قواها النازحة عنها، فمتى عظُم جِرم المغناطيس ووازت قُواه جميعَ قُوى جِرم الحديد عادت إلى طبعها المعهود. وكالنار في الحجر لا تبرز على قوة الحجر في الاتصال والاستدعاء لأجزائها حيث كانت إلا بعد القدح ومجاورة الجِرمين بضغطهما واصطكاكهما، وإلا فهي كامنة في حَجرها لا تبدو ولا تظهر.

ومن الدليل على هذا أيضًا أنك لا تجد اثنين يتحابّان إلا وبينهما مشاكلة واتفاق الصفات الطبيعية، لا بد في هذا وإن قل، وكلما كثرت الأشباه زادت المُجانسة وتأكَّدت المودة. فانظر هذا تراه عِيانًا، وقولُ رسول الله ﷺ يؤكِّده: «الأرواح جنود مجندة، ما تَعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

وأما العلة التي توقع الحب أبدًا في أكثر الأمر على الصورة الحسنة، فالظاهر أن النفس تولع بكل شيء حسن، وتميل إلى التصاوير المتقنة، فهي إذا رأت بعضها تثبتت فيه، فإن ميزت وراءها شيئًا من أشكالها اتصلت وصحت المحبة الحقيقية، وإن لم تميز وراءها شيئًا من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة، وذلك هو الشهوة.

والحب أعزك الله داء عَيَاء، وفيه الدواء منه على قدر المعاملة، ومقامٌ مستلذ، وعلة مشتهاة، لا يودُّ سليمُها البرءَ، ولا يتمنَّى عليلُها الإفاقة، يُزيِّن للمرء ما كان يأنف منه، ويُسهِّل عليه ما كان يصعُب عنده، حتى يُحيل الطبائع المركبة والجِبِلَّة المخلوقة.

وسيأتي كل ذلك ملخصًا في بابه إن شاء الله.

خبر

ولقد علمتُ فتًى من بعض معارفي قد وَحِل في الحب وتورَّط في حبائله، وأضر به الوجد، وأنضحه الدنف، وما كانت نفسُه تطيب بالدعاء إلى الله عزَّ وجلَّ في كشف ما به، ولا ينطق به لسانُه، وما كان دعاؤه إلا بالوصل والتمكُّن ممن يُحب، على عظيم بلائه وطويل همه، فما الظنُّ بسقيمٍ لا يريد فقْد سقمه. ولقد جالستُه يومًا فرأيت من إكبابه وسوء حاله وإطراقه ما ساءني، فقلت له في بعض قولي: فرَّج الله عنك. فلقد رأيتُ أثر الكراهية في وجهه.

وفي مثله أقول من كلمةٍ طويلةٍ:

واســتلذ بلائــي فيــك يا أملــي ولسـت عنـك مـدى الأيام أنصـرف

إن قيــل لي تســلى عــن مودتــه فمــا جــوابي إلا الــلام والألــف

باب علامات الحب

وللحُب علامات يقفوها الفَطن، ويهتدي إليها الذكي؛ فأولها إدمان النظر؛ والعين باب النفس الشارع، وهي المنقبة عن سرائرها، والمُعبِّرة لضمائرها، والمُعربة عن بواطنها، فترى الناظر لا يطرف، يتنقَّل بتنقُّل المحبوب، وينزوي بانزوائه، ويميل حيث مال كالحرباء مع الشمس، وفي ذلك أقول شعرًا، منه:

فَلَيْسَ لِعَيْنِي عِنْدَ غَيْرِكَ مَوْقِفٌ ... كَأَنَّكَمَا يَحْكُونَ مِنْ حَجَرِ البَهْتِ

أُصَرِّفُهَا حَيْثُ انْصَرَفتَ وَكَيْفَمَا ... تَقَلَّبْتَ كَالمَنْعُوتِ فِي النَّحْوِ وَالنَّعْتِ

ومنها الإقبال بالحديث، فما يكاد يُقبل على سوى محبوبه ولو تعمد غير ذلك، وإن التكلف ليستبين لمن يرمُقه فيه، والإنصات لحديثه إذا حدَّث، واستغرابُ كل ما يأتي به وكأنه عينُ المحال، وخَرق العادات، وتصديقه وإن كذب، وموافقتُه وإن ظلم، والشهادة له وإن جار، واتباعُه كيف سلك وأيَّ وجه من وجوه القول تناول.

ومنها الإسراعُ بالسيرِ نحو المكان الذي يكون فيه، والتعمُّد للقعود بقُربه والدنو منه، واطِّراح الأشغال الموجبة للزوال عنه، والاستهانةُ بِكل خَطْب جليل داعٍ إلى مفارقته، والتباطؤ في الشيء عند القيام عنه، وفي ذلك أقول شعرًا:

وَإِذَا قُمْتُ عَنْكَ لَمْ أَمْشِ ... إِلَّا مَشْيَ عَانٍ يُقَادُ نَحْوَ الفَنَاءِ

فِي مَجِيئِـي إِلَيْـكَ أَحْتَـثُّ كَالبَـدْرِ إِذَا كَــانَ قَاطِعًــا لِلسَّــمَاءِ
وَقِيَــامِي إِنْ قُمْــتَ كَــالأَنْجُمِ العَالِيَــةِ الثَّابِتَــاتِ فِي الإِبْطَــاءِ

ومنها بَهْت يقع وروعةٌ تبدو على المحب عند رؤية من يُحب فجأةً وطلوعه بغتةً. ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يُشبه محبوبه، أو عند سماع اسمه فجأة.

ومنها أن يجود المرءُ ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعًا به قبلَ ذلك، كأنه هو الموهوب له، والمسعي في حظه. كل ذلك ليُبدي محاسنه، ويُرغِّب في نفسه؛ فكم بخيل جاد! وقطُوب تطلَّق! وجبان تشجَّع! وغليظ الطبع تطرَّب! وجاهل تأدَّب! وتفِل تزيَّن! وفقير تجمَّل! وذي سن تفتَّى! وناسك تفتَّك! ومصون تبذَّل!

وهذه العلامات تكون قبل استعار نار الحب وتأجُّج حريقه، وتوقُّد شعله، واستطارة لهبه. فأما إذا تمكن وأخذ مأخذه، فحينئذٍ ترى الحديث سِرارًا، والإعراض عن كل ما حَضر إلا عن المحبوب جهارًا. ولي أبيات جمعتُ فيها كثيرًا من هذه العلامات، منها:

أهـوى الحـديث إذا مـا كـان يـذكر لي فيــه ويعبــق لي عــن عنــبر أرج
إن قــال لم أســتمع ممــن يجالســني إلى شـوى لفظـه المسـتطرف الغـنج
ولــو يكــون أمــير المــؤمنين معــي مـا كنـت مـن أجلـه عنـه بمنحـرج
فــإن أقــم عنــه مضــطرّاً فــإني لا أزال ملتفتــاً والمشــي شــيء وجــي

عينـاي فيـه وجسـمي عنـه مرتجـل ... مثل ارتقـاب الغريـق الـبر في اللجـج
أغـص بالمـاء إن أذكـر تباعـده ... كمـن تشاءب وسـط النقـع والـوهج
وزان تتـل ممكـن قصـد السـماء اتـل ... نغـم وإني لأدري موضـع الـدرج

ومن علاماته وشواهده الظاهرة لكُل ذي بَصر: الانبساطُ الكثير الزائد، والتضايقُ في المكان الواسع، والمجاذبة على الشيء يأخذه أحدهما، وكثرة الغمز الخفي، والميل بالاتكاء، والتعمد لمسِّ اليد عند المحادثة، ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة، وشرب فضلة ما أبقى المحبوب في الإناء، وتحري المكان الذي يقابله فيه.

ومنها علامات متضادة، وهي على قدر الدواعي والعوارض الباعثة، والأسباب المحركة، والخواطر المهيجة، والأضداد أنداد، والأشياء إذا أفرطت في غايات تضادها، ووقفت في انتهاء حدود اختلافها تشابهت، قدرة من الله عز وجل تضلُّ فيها الأوهام؛ فهذا الثلج إذا أدمن حبسه في اليد فَعَل فِعْل النار، ونجد الفَرَح إذا أفرط قتل، والغم إذا أفرط قتل، والضحك إذا كثر واشتد أسال الدمع من العينين. وهذا في العالم كثير، فنجد المحبين إذا تكافيا في المحبة وتأكدت بينهما تأكدًا شديدًا أكثر بهما جدُّهما بغير معنًى، وتضادُّهما في القول تعمدًا، وخروجُ بعضهما على بعض في كل يسير من الأمور، وتتبع كلٌّ منهما لفظةً تقع من صاحبه وتأولها على غير معناها.

كل هذه تجربة ليبدو ما يعتقده كل واحد منهما في صاحبه. والفرق بين هذا وبين حقيقة الهجرة والمضادة المتولدة عن الشحناء ومُخارجة

التشاجر سرعةُ الرضى؛ فإنك بينما ترى المُحبين قد بلغا الغاية من الاختلاف الذي لا يقدر يصلُح عند الساكن النفس، السالم من الأحقاد في الزمن الطويل، ولا ينجبر عند الحقود أبدًا، فلا تلبث أن تراهما قد عادا إلى أجمل الصُّحبة، وأُهدرت المعاتبة، وسقط الخلاف، وانصرفا في ذلك الحين بعينه إلى المُضاحكة والمداعبة، هكذا في الوقت الواحد مرارًا.

وإذا رأيت هذا من اثنين، فلا يُخالِجْك شكٌّ ولا يدخلنَّك ريبٌ البتةَ، ولا تتمارَ في أن بينهما سرًّا من الحب دفينًا، واقْطع فيه قَطْع من لا يصرفه عنه صارف، ودونكها تجربةً صحيحةً وخبرةً صادقة: هذا لا يكون إلا عن تكلفٍ في المودة وائتلاف صحيح، وقد رأيتُه كثيرًا.

ومن أعلامه أنك تجد المحب يستدعي سماع اسم من يُحب، ويستلذ الكلام في أخباره، ويجعلها هِجِّيراه، ولا يرتاح لشيء ارتياحه لها، ولا ينهنهه عن ذلك تخوُّف أن يَفطن السامع ويفهم الحاضر وحُبُّك الشيء يُعمي ويُصم.

فلو أمكن المُحب ألَّا يكون حديثٌ في مكان يكون فيه إلا ذكر مَن يُحبه لما تعدَّاه. ويعرض للصادق المودة أن يبتدئ في الطعام وهو له مُشتهٍ، فما هو إلا وقت ما تَهتاج له مِن ذِكْر من يُحب صار الطعام غُصةً في الحلق، وشجًى في المريء، وهكذا في الماء، وفي الحديث، فإنه يفاتحكه مبتهجًا، فتَعرض له خطرة من خطرات الفكر فيمن يُحب، فتستبين الحوالة في منطقه، والتقصير في حديثه، وآيةُ ذلك الوُجومُ والإطراق وشدة الانفلاق؛ فبينما هو طَلْق الوجه، خفيفُ الحركات، صار مُنطبقًا متثاقلًا

حائرَ النفس، جامدَ الحركة، يبرم من الكلمة، ويضجر من السؤال.

ومن علاماته حُبُّ الوحدة والأنس بالانفراد، ونُحول الجسم دون حدٍّ يكون فيه، ولا وجع مانع من التقلب والحركة والمشي. دليل لا يكذِب ومُخبر لا يخون عن كلمة في النفس كامنة. والسهرُ من أعراض المُحبين، وقد أكثر الشعراء في وصفه، وحكوا أنهم رُعاة الكواكب، وواصفُو طول الليل.

فهذا أمر لا مزيدَ فيه ولا يقدر أحدٌ على أكثرَ منه؛ إذ لا يَحتمل العَروضُ ولا بنية الأسماء أكثر من ذلك. ويعرض للمُحبين القلقُ عند أحد أمرين: أحدهما عند رجائه لقاءَ من يُحب فيعرض عند ذلك حائل.

باب من أحب في النوم

ولابُد لكل حُب من سبب يكون له أصلًا، وأنا مبتدئ بأبعد ما يمكن أن يكون من أسبابه ليجري الكلامُ على نسق، أو أن يُبتدأ أبدًا بالسهل والأهون؛ فمن أسبابه شيء لولا أني شاهدته لم أذكره لغرابته.

خبر

وذلك أني دخلتُ يومًا على أبي السريِّ عمَّار بن زياد صاحبنا مولى المؤيد فوجدته مفكرًا مهتمًّا، فسألته عمَّا به، فتمنَّع ساعةً ثم قال: لي أُعجوبة ما سُمِعتْ قط. قلت: وما ذاك؟ قال: رأيت في نَومي الليلةَ جاريةً، فاستيقظتُ وقد ذهَب قلبي فيها وهِمْت بها، وإني لفي أصعب حال من حبها. ولقد بقي أيامًا كثيرةً تزيد على الشهر مغمومًا لا يهنئه شيء وَجْدًا، إلى أن عذلتُه وقلتُ له: من الخطأ العظيم أن تشغل نفسك بغير حقيقة، وتُعلِّق وهمك بمعدوم لا يوجد، هل تعلم مَن هي؟ قال: لا والله. قلت: إنك لقَليْل الرأي مُصاب البصيرة إذ تحب مَن لم تره قط ولا خُلِق ولا هو في الدنيا، ولو عشقتَ صورةً من صور الحمام لكنت عندي أعذر. فما زِلتُ به حتى سلا وما كاد.

وهذا عندي من حديث النفس وأضغاثها، وداخل في باب التمني وتخيل الفكر. وفي ذلك أقول شعرًا، منه:

يا ليت شعري من كان وكيف سرت | أطلعة الشمس كانت أم هي القمر

أظنـــه العقـــل أبـــداه تـــدبره   أو صـــورة الـــروح أبـــدتها لي الفكـــر

أو صورة مثلت في النفس من أملي   فقـــد تخيـــل في إدراكهـــا البصـــر

أو لم يكـن كـل هـذا فهـي حادثـة   أتـى بهـا مسـبباً في حتفـي القـدر

باب من أحب بالوصف

ومن غريب أصول العشق أن تقع المَحبة بالوصف دون المُعاينة، وهذا أمر يُترقَّى منه إلى جميع الحب، فتكون المراسلة والمكاتبة والهم والوجد والسهر على غير الأبصار، فإن للحكايات ونعت المحاسن ورصف الأخبار تأثيرًا في النفس ظاهرًا. وأن تسمع نَغمتها من وراء جدار، فيكون سببًا للحب واشتغال البال.

وهذا كله قد وقع لغير ما واحد، ولكنه عندي بُنيان هارٍ على غير أُسٍّ، وذلك أن الذي أفرغ ذهنه في هوى مَن لم يرَ لا بُد له إذ يخلو بفكره أن يُمثل لنفسه صورةً يتوهمها، وعينًا يُقيمها نُصب ضميره، لا يتمثَّل في هاجسِه غيرَها، قد مال بوهمه نحوها، فإن وقعت المُعاينة يومًا ما فحينئذٍ يتأكَّد الأمر أو يبطل بالكلية، وكلا الوجهين قد عَرض وعُرف. وأكثرُ ما يقع هذا في ربَّات القُصور المحجوبات من أهل البيوتات مع أقاربهن من الرجال، وحُب النساء في هذا أثبت من حُب الرجال؛ لضعفهن وسُرعة إجابة طبائعهن إلى هذا الشأن، وتمكُّنه منهن.

وفي ذلك أقول شعرًا، منه:

وَيَا مَـــنْ لَامَـــنِي فِي حُـــبِّ ... مَـــنْ لَمْ يَـــرَهُ طَـــرْفِي
لَقَـــدْ أَفْرَطْـــتَ فِي وَصْفِـــكَ ... لِي فِي الحُـــبِّ بِالضَّـــعْفِ
فَقُـــلْ: هَـــلْ تُعْـــرَفُ الجَنَّـــةُ ... يَوْمًـــا بِسِـــوَى الوَصْـــفِ

وأقول شعرًا في استحسان النَّغمة دون وقوع العين على العيان، منه:

قَـدْ حَـلَّ جَـيْشُ الغَـرَامِ سَمْعِـي وَهْـــوَ عَلَـــى مُقْلَـــتَيَّ يَبْـــدُو

وأقول أيضًا في مخالفة الحقيقة لظنِّ المحبوب عند وقوع الرؤية:

وَصَـفُوكَ لِي حَـتَّى إِذَا أَبْصَـرْتُ مَـا وَصَـــفُوا علمـــتُ بِأَنَّـــهُ هَـــذَيَانُ

فَالطَّبْـــلُ جِلْـــدٌ فَـــارِغٌ وَطَنِينُـــهُ يَـــرْتَاعُ مِنْـــهُ وَيَفْـــرَقُ الإِنْسَـــانُ

باب من أحب من نظرة واحدة

وكثيرًا ما يكون لُصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة، وهو ينقسم قسمين، فالقسم الواحد مخالف للذي قبل هذا، وهو أن يعشق المرء صورةً لا يعلم من هي، ولا يدري لها اسمًا ولا مستقرًّا. وقد عرض هذا لغير واحد.

خبر

حدثني صاحبنا أبو بكر مُحَمَّد بن أحمد بن إسحاق عن ثقة أخبره، سقط عني اسمه، وأظنه القاضي ابن الحذاء، أن يوسف بن هارون الشاعر المعروف بالرَّماديّ كان مجتازًا عند باب العطارين بقُرطبة وهذا الموضع كان مجتمعَ النساء فرأى جاريةً أخذت بمجامع قلبه، وتخلَّل حبُّها جميعَ أعضائه، فانصرف عن طريق الجامع وجعل يَتبعها وهي ناهضة نحو القنطرة، فجازتها إلى الموضع المعروف بالرَّبَض. فلما صارت بين رياض بني مروان رحمهم الله – المبنية على قبورهم في مقبرة الربض خَلْف النهر، نَظرت منه مُنفردًا عن الناس لا همَّة له غيرها، فانصرفت إليه فقالت له: ما لك تمشي ورائي؟ فأخبرها بعظيم بليَّته بها، فقالت له: دَعْ عنك هذا ولا تطلُب فضيحتي؛ فلا مطمع لك في النِّية، ولا إلى ما ترغبه سبيل. فقال: إني أقنع بالنظر. فقالت: ذلك مُباح لك. فقال لها: يا سيدتي، أحُرَّة أم مملوكة؟ قالت: مملوكة. فقال لها: ما اسمك؟ قالت: خلوة. قال: ولمن أنت؟ فقالت له: علمك والله بما في السماء السابعة أقرب إليك مما سألت عنه؛ فدع المحال.

فقال لها: يا سيدتي، وأين أراكِ بعد هذا؟ قالت: حيث رأيتَني اليومَ في

مثل تلك الساعة من كل جُمعة. فقالت له: إما أن تَنهض أنت وإما أنهض أنا. فقال لها: انهضي في حفظ الله. فنهضت نحو القَنطرة ولم يمكنه اتباعها؛ لأنها كانت تلتفت نحوه لترى أيُسايرها أم لا، فلما تجاوزت باب القنطرة أتى يقفوها فلم يقع لها على مسألة.

قال أبو عمر، وهو يوسف بن هارون: فوالله لقد لازمت باب العطَّارين والرَّبض من ذلك الوقت إلى الآن، فما وقعتُ لها على خبر، ولا أدري أسَماءٌ لَحَستْها أم أرضٌ بلعتْها، وإن في قلبي منها لأحَرَّ من الجمر. وهي خلوة التي يَتغزَّل بها في أشعاره.

ثم وقع بعد ذلك على خَبرها بعد رحيله في سببها إلى سَرَقسطة في قصة طويلة. ومثل ذلك كثير، وفي ذلك أقول قطعةً، منها:

عَيْنِي جَنَتْ فِي فُؤَادِي لَوْعَةَ الفِكَرِ ... فَأُرسلُ الدَّمْعَ مُقْتَصًّا مِنَ البَصَرِ
فَكَيْفَ تُبْصِرُ فعل الدَّمْع مُنْتَصِفًا ... مِنْهَا بِإغْرَاقِهَا فِي دَمْعِهَا الدُّرَرِ
لَمْ أَلْقَهَا قَبْلَ إِبْصَارِي فَأَعْرِفَهَا ... وَآخِرُ العَهْدِ مِنْهَا سَاعَةُ النَّظَرِ

والقسم الثاني مخالف للباب الذي يأتي بعد هذا الباب إن شاء الله، وهو أن يعلق المرءُ من نظرةٍ واحدةٍ جاريةً معروفة الاسم والمكان والمَنشأ، ولكن التفاضل يقع في هذا في سُرعة الفناء وإبطائه، فمن أحب من نظرة واحدة وأسرع العلاقة من لمحة خاطرة؛ فهو دليل على قلَّة الصبر، ومُخبرٌ بسرعة السلو، وشاهد الظرافة والملل، وهكذا في جميع الأشياء أسرعُها نموًّا أسرعها فناءً، وأبطؤها حدوثًا أبطؤها نفاذًا.

باب من لا يحب إلا مع المطاولة

ومن الناس من لا تصحُّ محبته إلا بعد طولِ المُخافتة، وكثيرِ المُشاهدة، ومتمادي الأُنس، وهذا الذي يوشك أن يدوم ويثبت ولا يَحيك فيه مرُّ الليالي، فما دَخل عسيرًا لم يخرج يسيرًا؛ وهذا مذهبي. وقد جاء في الأثر أن الله عز وجل قال للروح حين أمره أن يدخل جسدَ آدم وهو فخَّار فهابَ وجَزِعَ: ادخُل كرهًا واخرُج كرهًا. حُدِّثناه عن شيوخنا.

ولقد رأيت من أهل هذه الصفة مَن إن أَحسَّ من نفسه بابتداء هوًى، أو توَجَّس مِن استحسانه ميلًا إلى بعض الصور؛ استعمل الهجر وترك الإلمام لئلا يزيد ما يجد فيخرج الأمر عن يده، ويُحال بين العَيْر والنَّزَوان. وهذا يدل على لُصوق الحُب بأكباد أهل هذه الصفة، وأنه إذا تمكَّن منهم لم يُحَلَّ أبدًا.

وإني لأطيل العجب مِن كل مَن يدعي أنه يحب مِن نظرة واحدة، ولا أكاد أصدقه، ولا أجعل حُبَّه إلا ضربًا من الشهوة، وأما أن يكون في ظنّي متمكنًا من صميم الفؤاد نافذًا في حجاب القلب فما أُقدِّر ذلك، وما لصق بأحشائي حُبٌّ قطُّ إلا مع الزمن الطويل، وبعد ملازمة الشخص لي دهرًا، وأخذي معه في كل جدٍّ وهزل، وكذلك أنا في السلوِّ والتوقي، فما نسيت ودًّا لي قطُّ، وإن حَنيني إلى كل عهد تقدَّم لي ليُغِصُّني بالطعام، ويُشرقني بالماء وقد استراح مَن لم تكن هذه صفتُه وما مللتُ شيئًا قط بعد معرفتي به، ولا أسرعت إلى الأنس بشيء قط أولَ لقائي له، وما رغبتُ في

الاستبدال إلى سبب من أسبابي مذ كنت، لا أقول في الأُلَّاف والإخوان وحدهم، لكن في كل ما يَستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعوم وغير ذلك، وما انتفعتُ بعيش ولا فارقني الإطراق والانفلاق مذ ذقت طعم فراق الأحبة، وإنه لشَجًى يعتادني وولوع همٍّ ما ينفكُّ يَطْرُقني، ولقد نغَّصَ تذكري ما مَضى كلَّ عيشٍ أستأنفه، وإني لقَتيل الهموم في عداد الأحياء، ودفين الأسى بين أهل الدنيا. والله المحمود على كل حال لا إله إلا هو.

ولا يظن ظانٌّ ولا يتوهَّم متوهِّم أن كل هذا مخالف لقولي المسطر في صدر الرسالة، أن الحب اتصال بين النفوس في أصل عالمها العُلوي، بل هو مؤكِّد له؛ فقد علمنا أن النفس في هذا العالم الأدنى قد غمرتْها الحُجب، ولحقتْها الأغراض، وأحاطتْ بها الطبائع الأرضية الكونية، فسترت كثيرًا من صفاتها وإن كانت لم تحله، لكن حالت دونه فلا يُرجَى الاتصال على الحقيقة إلا بعد التهيؤ من النفس والاستعداد له، وبعد إيصال المعرفة إليها بما يشاكلها ويوافقها، ومقابلة الطبائع التي خفيت مما يُشابهها من طبائع المحبوب، فحينئذٍ يتصل اتصالًا صحيحًا بلا مانع.

وأما ما يقع من أول وهلة ببعض أعراض الاستحسان الجسدي، واستطراف البصر الذي لا يجاوز الألوان، فهذا سر الشهوة ومعناها على الحقيقة، فإذا غَلبت الشهوة وتجاوزت هذا الحد، ووافق الفصلَ اتصالٌ نفساني تشترك فيه الطبائع مع النفس يُسمَّى عشقًا. ومن هذا دخل الغَلَط على من يزعُم أنه يُحب اثنين، ويعشق شخصين متغايرين، فإنما هذا من جهة الشهوة التي ذكرنا آنفًا، وهي على المجاز تسمى محبةً لا على

التحقيق. وأما نفس المحب فما في المَيل به فضل يصرفه من أسباب دينه ودنياه، فكيف بالاشتغال بحبٍّ ثانٍ.

باب من أحب صفةً لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها

واعلم أعزَّك الله أن للحُب حكمًا على النفوس ماضيًا، وسلطانًا قاضيًا، وأمرًا لا يخالَف، وحدًّا لا يُعصى، وملكًا لا يُتعدَّى، وطاعةً لا تُصرف، ونفاذًا لا يُرد؛ وأنه ينقض المِرَر، ويَحُلُّ المُبرَم، ويُحلِّل الجامد، ويُخِلُّ الثابت، ويَحِلُّ الشغافَ، ويُحِلُّ الممنوع. ولقد شاهدت كثيرًا من الناس لا يُتَّهمون في تمييزهم، ولا يُخاف عليهم سقوط في معرفتهم، ولا اختلال بحُسن اختيارهم، ولا تَقصير في حَدْسهم، قد وصفوا أحبابًا لهم في بعض صفاتهم بما ليس بمُستحسن عند الناس، ولا يُرضى في الجمال، فصارت هِجِّيراهم، وعُرضة لأهوائهم، ومنتهى استحسانهم.

ثم مضى أولئك إمَّا بسلوٍّ أو بَيْنٍ أو هجر، أو بعض عوارض الحب، وما فارقهم استحسان تلك الصفات ولا بان عنهم تفضيلُها على ما هو أفضل منها في الخليقة، ولا مالوا إلى سواها، بل صارت تلك الصفات المُستجادة عند الناس مهجورةً عندهم وساقطةً لديهم إلى أن فارقوا الدنيا وانقضت أعمارهم، حنينًا منهم إلى مَن فقدوه، وألفة لمن صحبوه.

وما أقول إن ذلك كان تصنُّعًا، لكن طبعًا حقيقيًّا واختيارًا لا دَخَل فيه، ولا يرَوْن سواه، ولا يقولون في طيِّ عَقْدهم بغيره. وإني لأعرف من كان في جِيد حبيبه بعضُ الوقص فما استحسن أغيد ولا غيداء بعد ذلك. وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة إلى القِصَر فما أحبَّ طويلةً بعد

هذا، وأعرف أيضًا من هوَى جاريةً في فمها فَوَه لطيف، فلقد كان يتقذَّر كل فم صغير ويذُمُّه ويكرهه الكراهية الصحيحة. وما أصف عن مَنقوصي الحظُوظ في العلم والأدب، لكن عن أوفر الناس قسطًا في الإدراك، وأحقهم باسم الفهم والدِّراية.

وعنِّي أخبرك أني أحببتُ في صباي جاريةً لي شقراء الشعر، فما استحسنتُ من ذلك الوقت سوداء الشعر، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه. وإني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت، لا تُؤاتيني نفسي على سواه، ولا تحب غيره البتة. وهذا العارض بعينه عَرض لأبي وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجلُه.

وأما جماعة خلفاء بني مروان رحمهم الله ولا سيما ولدُ الناصر منهم، فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة، لا يختلف في ذلك منهم مختلف، وقد رأيناهم ورأينا من رآهم من لَدُن دولة الناصر إلى الآن فما منهم إلا أشقر؛ نزاعًا إلى أمهاتهم، حتى قد صار ذلك فيهم خِلقة، حاشا سليمان الظافر رحمه الله فإني رأيته أسود اللمَّة واللحية.

وأما الناصر والحكم المُستنصر رضي الله عنهما فحدثني الوزير أبي رحمه الله وغيره أنهما كانا أشقرَين أشهلين، وكذلك هشام المؤيَّد، ومُحمَّد المهدي، وعبد الرحمن المرتضي رحمهم الله فإني قد رأيتهم مرارًا، ودخلت عليهم فرأيتهم شُقرًا شُهلًا، وهكذا أولادهم وإخوتهم وجميع أقاربهم، فلا أدري أذلك استحسان مركَّب في جميعهم أم لرواية كانت عند أسلافهم في ذلك فجرَوْا عليها.

وهذا ظاهر في شعر عبد الملك بن مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن أمير المؤمنين الناصر، وهو المعروف بالطليق، وكان أشعر أهل الأندلس في زمانهم، وأكثر تغزله فبالشُّقر، وقد رأيته وجالسته.

وليس العجب فيمن أحبَّ قبيحًا ثم لم يَصحبه ذلك في سواه، فقد وقع من ذلك، ولا فيمن طُبع مذ كان على تفضيل الأدنى، ولكن فيمن كان ينظُر بعين الحقيقة ثم غَلب عليه هوًى عارضٌ بعد طول بقائه في الجماعة، فأحاله عما عهدتْه نفسُه حوالةً صارت له طبعًا، وذهب طبعه الأول وهو يعرف فضل ما كان عليه أوَّلًا، فإذا رجع إلى نفسه وجدها تأبَى إلا الأدنى، فأعجب لهذا التغلب الشديد والتسلط العظيم، وهو أصدق المحبة حقًّا، لا من يتحلَّى بشِيَم قوم ليس منهم، ويدَّعي غريزةً لا تقبله، فيزعم أنه يتخيَّر من يحب. أما لو شغل الحب بصيرته وأطاح فكرته، وأجحف بتمييزه؛ لحال بينه وبين التخيُّل والارتياد.

باب التعريض بالقول

ولا بُد لكل مَطلوبٍ من مدخل إليه، وسببٍ يُتوصَّل به نحوه، فلم ينفرد بالاختراع دون واسطة إلا العليمُ الأول جلَّ ثناؤه. فأول ما يستعمل طُلَّاب الوصل وأهل المحبة في كشف ما يجدونه إلى أحِبَّتِهم التعريضُ بالقول؛ إما بإنشاد شعر، أو بإرسال مُثُل، أو تعمية بيت، أو طرح لغز، أو تسليط كلام.

والناس يختلفون في ذلك على قدر إدراكهم، وعلى حسب ما يرونه من أحبتهم من نفار أو أُنس أو فطنة أو بلادة. وإني لأعرف من ابتدأ كشف محبته إلى من كان يُحب بأبيات قلتُها؛ فهذا وشبهه يَبتدئ به الطالب للمودة، فإن رأى أُنسًا وتسهيلًا زاد، وإن يُعاين شيئًا من هذه الأمور في حين إنشاده لشيء مما ذكرنا، أو إيراده لبعض المعاني التي حدَّدنا، فانتظاره الجواب إما بلفظ أو بهيئة الوجه والحركات لَمَوْقِفٌ بين الرجاء واليأس هائل، وإن كان حينًا قصيرًا، ولكنه إشراف على بلوغ الأمل أو انقطاعه.

ومن التعريض بالقول: جنسٌ ثانٍ، ولا يكون إلا بعد الاتفاق ومعرفة المحبَّة من المحبوبِ، فحينئذٍ يقع التشكِّي، وعقد المواعيد، والتغرير، وإحكام المودات بالتعريض، وبكلام يظهر لسامعه منه معنًى غير ما يذهبان إليه، فيجيب السامع عنه بجواب غير ما يتأدَّى إلى المقصود بالكلام، على حسب ما يتأدَّى إلى سمعه، ويسبق إلى وهمه، وقد فهم كلُّ واحد منهما عن صاحبه، وأجابه بما لا يفهمه غيرُهما، إلَّا من أُيِّد بحسٍّ نافذ، وأُعين بذكاء،

وأُمدَّ بتجربة، ولا سيما إن أحس من معانيهما بشيء، وقَلَّما يغيب عن المتوسِّم المجيد؛ فهنالك لا خفاء عليه فيما يريدان.

وأنا أعرف فتًى وجاريةً كانا يتحابان، فأرادها في بعض وَصْلها على بعض ما لا يجمل، فقالت: والله لأشكونَّك في الملأ علانيةً، ولأفضحنك فضيحةً مستورةً.

فلما كان بعد أيام حضرت الجاريةُ مجلس بعض أكابر المُلوك وأركان الدولة وأجلِّ رجال الخلافة، وفيه ممن يُتوقَّى أمره من النساء والخدم عددٌ كثير، وفي جملة الحاضرين ذلك الفتى؛ لأنه كان بسبب من الرئيس، وفي المجلس مغنياتٌ غيرُها، فلما انتهى الغناء إليها سوَّت عودها، واندفعت تغني بأبيات قديمة، وهي:

غَـزَالٌ قَـدْ حَكَـى بَـدْرَ التَّمَـامِ ... كَشَـمْسٍ قَـدْ تَجَلَّـتْ مِـنْ غَمَـامِ

سَـبَى قَلْـبِي بِأَلْحَـاظٍ مِـرَاضٍ ... وقَـدِّ الغُصْـنِ فِي حُسْـنِ القَـوَامِ

خَضَـعتُ خُضُـوعَ صَـبٍّ مُسْـتَكِينٍ ... لَـهُ وذَللـتُ ذِلَّـةَ مُسْـتَهَامِ

فَصِـلْنِي يَا فَـدَيْتُكَ فِي حَـلَالٍ ... فَمَـا أَهْـوَى وِصَـالًا فِي حَـرَام

وعلمت أنا هذا الأمر فقلت:

عِتَـابٌ وَاقِـعٌ وَشـكَاةُ ظُلْـمِ أَتَـتْ ... مِـنْ ظَـالِمٍ حَكَـمٍ وَخَصْـمِ

تَشَـكَّتْ مَـا بِهَـا لَمْ يَـدْرِ خَلْـقٌ ... سِـوَى المَشْـكُوِّ مَـا كَانَـتْ تُسَـمِّي

باب الإشارة بالعين

ثم يتلو التعريضَ بالقول، إذا وقع القبولُ والموافقة، الإشارةُ بلحظ العين، وإنه ليقوم في هذا المعنى المقامَ المحمود، ويبلغ المبلغ العجيب، ويُقطَع به ويُتواصل، ويُوعد ويُهدد، وينتهر ويبسط، ويُؤْمر ويُنْهى، وتُضرب به الوعود، ويُنبَّه على الرقيب، ويُضحَك ويُحزَن، ويُسأل ويُجاب، ويُمنع ويُعطى.

ولكل واحد من هذه المعاني ضرب من هيئة اللحظ لا يُوقف على تحديده إلا بالرؤية، ولا يُمكن تصويرُه ولا وصفُه إلا بالأقل منه، وأنا واصف ما تيسر من هذه المعاني: فالإشارة بمُؤخِّر العين الواحدة نَهي عن الأمر، وتفتيرها إعلام بالقَبول، وإدامة نظرها دليل على التوجع والأسف، وكسر نظرها آية الفرح.

واعلم أن العين تنوب عن الرُّسل، ويُدرَك بها المراد، والحواس الأربع أبواب إلى القلب ومنافذ نحو النفس، والعين أبلغها، وأصحها دلالةً، وأوعاها عملًا، وهي رائد النفس الصادق، ودليلها الهادي، ومرآتها المَجْلُوَّة التي بها تَقف على الحقائق، وتَميِّز الصفات، وتفهم المحسوسات، وقد قيل: ليس المُخبَرَ كالمعايِن.

وبحسبك من قوة إدراك العين أنها إذا لاقى شعاعُها شعاعًا مجلوًّا صافيًا، إما حديدًا مفصولًا أو زجاجًا أو ماءً أو بعض الحجارة الصافية أو سائر الأشياء المجلوة البراقة ذوات الرفيف والبصيص واللمعان، يتصل

أقصى حدوده بجسم كثيف ساتر منَّاع كدِر، انعكس شعاعُها؛ فأدرك الناظرُ نفسَه ومازها عيانًا.

وهو الذي ترى في المرآة، فأنت حينئذٍ كالناظر إليك بعين غيرك. ودليل عيانيٌّ على هذا أنك تأخذ مرآتين كبيرتين فتُمسك إحداهما بيمينك خلف رأسك، والثانية بيسارك قبالة وجهك، ثم تزويها قليلًا حتى يلتقيان بالمقابلة، فإنك ترى قفاك وكلَّ ما وراءك، وذلك لانعكاس ضوء العين إلى ضوء المرآة التي خلفك إذ لم تجد منفذًا في التي بين يديك، ولما لم يجد وراء هذه الثانية منفذًا انصرف إلى ما قابله من الجسم. وإن كان صالح غلام أبي إسحاق النظَّام خالف في الإدراك، فهو قول ساقط لم يوافقه عليه أحد.

ولو لم يكن من فضل العين إلا أنَّ جوهرها أرفع الجواهر وأعلاها مكانًا لأنها نورية لا تُدرَك الألوان بسواها، ولا شيء أبعد مرمًى ولا أنأى غايةً منها لأنها تُدرَك بها أجرام الكواكب التي في الأفلاك البعيدة، وتُرى بها السماء على شدَّة ارتفاعها وبُعدها، وليس ذلك إلا لاتصالها في طبع خِلقتها بهذه المرآة، فهي تدركها وتصل إليها بالنظر، لا على قطع الأماكن والحلول في المواضع وتنقُّل الحركات، وليس هذا لشيء من الحواس مثل الذوق واللمس لا يُدركان إلا بالمجاورة، والسمع والشم لا يُدركان إلا من قريب، ودليل على ما ذكرناه من النظر أنك ترى المُصوِّت قبل سماع الصوت، وإن تعمَّدت إدراكهما معًا، وإن كان إدراكهما واحدًا لما تقدَّمت.

باب المراسلة

ثم يتلو ذلك إذا امتزجا المراسلةُ بالكتب، وللكتب آيات. ولقد رأيتُ أهل هذا الشأن يُبادرون لقطع الكُتبِ، وبحلها في الماء، وبمحو أثرها، فرُبَّ فضيحة كانت بسببِ كتاب. وفي ذلك أقول:

عَزِيـزٌ عَلَـيَّ اليَـوْمَ قَطْـعُ كِتَـابِكُم ولَكِنَّـــهُ لَمْ يُلْـــفَ لِلْـــوُدِّ قَـــاطِعُ

فَـآثَرْتُ أَنْ يَبْقَـى وِدَادٌ وَيَنْمَحِـي مِـدَاد فَـإِنَّ الفَـرْعَ لِلأَصْـلِ تَابِـعُ

فَكَـمْ مِـنْ كِتَـابٍ فِيـهِ مِيتَـةُ رَبِّـه وَلَمْ يَـــدْرِهِ إِذْ نَمَّقَتْـــهُ الأَصَـــابِعُ

وينبغي أن يكون شكل الكتاب ألطفَ الأشكال، وجنسُه أملحَ الأجناس. ولعمري إن الكتاب لَلِسان في بعض الأحايين، إما لحصرٍ في الإنسان وإما لحياء وإما لهيبة. نعم، حتى إنَّ لوصول الكتاب إلى المحبوب وعِلْم المُحب أنه قد وقع بيده ورآه للذةً يجدها المحب عجيبةً تقوم مقام الرؤية، وإن لرد الجواب والنظر إليه سرورًا يَعدِل اللقاء، ولهذا ما ترى العاشق يَضع الكتاب على عينيه وقلبه ويُعانقه.

ولعهدي ببعض أهل المحبة، ممن كان يَدري ما يقول ويُحسن الوصف ويُعبِّر عما في ضميره بلسانه عبارة جيدةً، ويُجيد النظر، ويدقق في الحقائق، لا يَدع المُراسلة وهو مُمكن الوصل قريبُ الدار أتيُّ المَزار، ويَحكي أنها وجوه اللذة. ولقد أُخبرت عن بعض السُّقَّاط الوُضعاء أنه كان يضع كتاب محبوبه على إحليله، وأن هذا النوع من الاغتلام قَبيح، وضَرب من الشَّبق فاحش.

وأما سَقيُ الحِبْرِ بالدَّمع فأعرف مَن كان يفعل ذلك ويُقارضه محبوبه، يسقي الحبر بالرِّيق.

خبر

ولقد رأيتُ كتابَ المُحب إلى محبوبه، وقد قَطع في يده بسكين له فسال الدم، واستمد منه وكتب به الكتاب أجمعَ، ولقد رأيت الكتاب بعد جُفوفه فما شككت أنه بصبغ اللكِّ.

باب السفير

ويقع في الحب بعد هذا، بعد حُلول الثقة وتمام الاستئناس، إدخال السفير، ويجب تخيُّره وارتياده واستجادته واستفراهه؛ فهو دليل عقل المرء، وبيده حياته وموته، وستره وفضيحته، بعد الله تعالى، فينبغي أن يكون الرسول ذا هيئة، حاذقًا يكتفي بالإشارة، ويُقرطس عن الغائب، ويُحسن من ذات نفسه ويَضع من عَقله ما أغفله باعثُه، ويؤدي إلى الذي أرسله كل ما يشاهد على وجهه كأنما كان للأسرار حافظًا، وللعهد وفيًّا، قنوعًا ناصحًا. ومن تعدَّى هذه الصفات كان ضرره على باعثه بمقدار ما نقَصه منها.

وأكثر ما يستعمل المُحبُّون في إرسالهم إلى من يُحبونه إما خاملًا لا يُؤبه له، ولا يُهتدَى للتحفظ منه لصباه أو لهيئة رثة أو بدادة في طلعته.

وإما جليلًا لا تلحقه الظِّنن لنُسك يُظهره، أو لسنٍّ عالية قد بلغها. وما أكثر هذا في النساء، ولا سيما ذوات العكاكيز والتَّسابيح والثَّوبين الأحمرين. وإني لأذكر بقُرطبةَ التحذيرَ للنساء المُحدَثات من هذه الصفات حيثما رأيتها. أو ذوات صناعة يقرَّب بها من الأشخاص؛ فمن النساء كالطبيبة والحجَّامة والسراقة والدلالة والماشطة والنائحة والمغنية والكاهنة والمُعلمة والمُستخفة والصناع في المغزل والنسيج وما أشبه ذلك.

أو ذا قرابة من المرسَل إليه لا يشح بها عليه. فكم مَنيع سهُل بهذه الأوصاف، وعسير يَسُرَ، وبعيد قَرُب. وجَمُوح أنس!

وكم داهية دهت الحُجب المصونة، والأستار الكثيفة، والمقاصير

المحروسة، والسدد المضبوطة لأرباب هذه النعوت! ولولا أن أنبه عليها لذكرتها، ولكن لقطع النظر فيها، وقلة الثقة بكل واحد، والسعيدُ من وُعظ بغيره، وبالضد تتميز الأشياء. أسبل الله علينا وعلى جميع المسلمين ستره، ولا أزالَ عن الجميع ظل العافية.

خبر

وإني لأعرف من كانت الرسول بينهما حمامةً مؤدَّبة، ويُعقد الكتاب في جناحِها. وفي ذلك أقول قطعةً، منها:

تَخَيَّرَهَا نوحٌ فَمَا خَابَ ظَنُّه لَدَيْهَا وَجَاءَتْ نَحْوَهُ بِالبَشَائِرِ
سَأُودِعُها كُتْبِي إِلَيْكَ فَهَاكَهَا رَسَائِلَ تُهْدَى فِي قَوادِمِ طَائِرِ

باب طي السر

ومن بعض صفاتِ الحُب الكتمانُ باللسان، وجحود المحب إن سُئل، والتصنُّع بإظهار الصبر، وأن يُرى أنه عِزْهاةٌ خَلِيٌّ. ويأبى السرُّ الدقيق، ونارُ الكلف المتأججة في الضلوع، إلا ظهورًا في الحركات والعين، ودبيبًا كدبيب النار في الفحم، والماء في يبيس المَدر. وقد يُمكن التَّمويه في أول الأمر على غير ذي الحسِّ اللطيف، وأما بعد استحكامه فمحال. وربما يكون السبب في الكتمان تَصاون المُحب عن أن يَسِمَ نفسه بهذه السمة عند الناس؛ لأنها بزعمه من صفات أهل البطالة، فيفر منها ويتفادى. وما هذا وجه التصحيح، فبحسب المرء المُسلم أن يعفَّ عن محارم الله عزَّ وجل التي يأتيها باختياره ويُحاسب عليها يوم القيامة.

وأما استحسان الحُسن وتمكُّن الحب فطَبع لا يُؤمر به ولا يُنهى عنه؛ إذ القلوب بيد مُقلبها، ولا يَلْزمه غيرُ المعرفة والنظر في فرق ما بين الخطأ والصواب، وأن يعتقد الصحيح باليقين، وأما المحبة فخِلقة، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحِه المكتسبة.

وفي ذلك أقول:

يَلُـومُ رِجَـالٌ فِيـك لَمْ يَعْرِفُـوا الهَـوَى ... وَسِيَّانِ عِنْـدِي فِيـك لَاحٍ وَسَـاكِتُ

يَقُولُـونَ جَانَبْـتَ التَّصَـاوُنَ جُمْلَـةً ... وَأَنْـت عَلَـيْهِمْ بِالشَّـرِيعَةِ قَانِـت

فَقُلْـتُ لَهُـمْ هَـذَا الـرِّيَاءُ بِعَيْنِـه ... صُـرَاحًا وَزِيٌّ لِلْمـرائِينَ مَاقِـت

مَـتَى جَـاءَ تَحْرِيمُ الهَـوَى عَـنْ مُحَمَّـدٍ ... وَهَـلْ مَنْعُهُ فِي مُحْكَـمِ الـذِّكْرِ ثَابِـت

خبر

وإني لأعرف بعضَ من امتُحن بشيء من هذا فسكن الوجدُ بين جوانحه، فرام جَحْده إلى أن غَلظ الأمر، وعُرف ذلك في شمائله مَن تعرَّض للمعرفة ومن لم يتعرض. وكان مَن عَرض له بشيء نَجَهَه وقَبَّحه، إلى أن كان مَن أراد الحظوة لديه من إخوانه يُوهمه تصديقَه في إنكاره، وتكذيبَ من ظن به غير ذلك، فسُرَّ بهذا. ولعهدي به يومًا قاعدًا ومعه بعضُ من كان يَعرض له بما في ضميره، وهو ينتفي غاية الانتفاء، إذ اجتاز بهما الشخص الذي كان يُتهم بعلاقته، فما هو إلا أن وقعت عينه على محبوبه حتى اضطرب وفارق هيئته الأولى، واصفر لونه، وتفاوتت معاني كلامه بعد حُسن تثقيف، فقطع كلامَه المتكلمُ معه؛ فلقد استدعى ما كان فيه من ذكره، فقيل له: ما عدا عمَّا بدا. فقال: هو ما تظنون، عذَر من عذَر، وعذَل من عذَل.

وهذا إنما يَعرض عند مُقاومة طبع الكتمان والتصاون لطبع المُحب وغلبته، فيكون صاحبه متحيِّرًا بين نارين محرقتين. وربما كان سبب الكتمان إبقاء المحب على محبوبه، وإن هذا لمن دلائل الوفاء وكرم الطبع. وربما كان سببُ الكتمان توقِّيَ المحب على نفسه من إظهار سره، لجلالة قدر المحبوب. وربما كان من أسباب الكِتمان الحَياء الغالب على الإنسان، وربما كان من أسباب الكتمان أن يرى المحب من مَحبوبه انحرافًا وصدًّا، ويكون ذا نفس أبيَّة، فيستتر بما يجد لئلا يَشمت به عدو، أو يريهم ومَن يُحب هوانَ ذلك عليه.

باب الإذاعة

وقد تَعْرِض في الحُب الإذاعة، وهو من مُنكر ما يحدُث من أعراضه، ولها أسباب، منها: أن يُريد صاحبُ هذا الفعل أن يتزيَّا بزيِّ المحبين، ويدخل في عِدادهم، وهذه خلافة لا تُرضى، وتخليج بغيض، ودعوى في الحب زائفة.

وربما كان من أسباب الكَشف غلبةُ الحب، وتسوُّر الجهر على الحياء، فلا يملك الإنسان حينئذٍ لنفسه صرفًا ولا عَدْلًا. وهذا من أبعد غايات العشق وأقوى تحكُّمه على العقل، حتى يمثل الحسن في تمثال القبيح، والقبيح في هيئة الحسن، وهنالك يرى الخير شرًّا، والشر خيرًا. وكم من مَصون الستر، مُسبل القناع، مَسدول الغِطاء، قد كَشف الحبُّ ستْره، وأباح حريمه، وأهمل حِماه، فصار بعد الصيانة عَلَمًا، وبعد السكون مثلًا، وأحبُّ شيء إليه الفضيحة فيما لو مثل له قبل اليوم لاعتراه النافض عن ذكره، ولطالت استعاذته منه، فسَهُل ما كان وعرًا، وهان ما كان عزيزًا، ولانَ ما كان شديدًا.

ولعهدي بفتًى من سَرَوات الرجال وعِلْية إخواني قد دُهِي بمحبَّة جاريةٍ مقصورة هام بها، وقطعه حُبُّها عن كثير من مصالحه، وظهرت آيات هواه لكل ذي بصر، إلى أن كانت هي تعذله على ما ظهر منه مما يقوده إليه هواه.

خبر

وحدَّثني موسى بن عاصم بن عمرو قال: كنت بين يدي أبي الفتح والدي رحمه الله وقد أمرني بكتابٍ أكتبه، إذ لمحتْ عيني جارية كنت أكلَف بها، فلم أملك نفسي ورميتُ الكتاب عن يدي وبادرتُ نحوها، وبُهت أبي وظن أنه عرَض لي عارض، ثم راجعني عقلي فمسحتُ وجهي ثم عُدت واعتذرت بأنه غَلبني الرُّعاف.

واعلم أن هذا داعيةُ نِفار المحبوب، وفساد في التدبير، وضعف في السياسة، وما شيء من الأشياء إلا وللمأخذ فيه سُنة وطريقة، متى تعدَّاها الطالب أو خَرِق في سلوكها انعكس عمله عليه، وكان كَدُّه عناءً، وتعبه هباءً، وبحثه وباءً، وكلما زاد عن وجه السِّيرة انحرافًا، وفي تجنُّبها إغراقًا، وفي غير الطريق إيغالًا، ازداد عن بلوغ مراده بُعدًا.

خبر

وإني لأعرف من أهل قُرطبة من أبناء الكتاب وجلة الخدَمة من اسمه أحمد بن فَتْح، كنت أعهده كثير التصاون، من بُغاة العلم وطُلاب الأدب، يبزُّ أصحابه في الانقباض، ويفُوتهم في الدَّعة، لا ينظر إلا في حَلْقة فضل، ولا يُرى إلا في محفل مرضًّى، محمود المذاهب، جميل الطريقة، بائنًا بنفسه ذاهبًا بها، ثم أبعدت الأقدارُ داري من داره، فأول خبر طرأ عليَّ بعد نزولي شاطبة أنه خلَع عذاره في حُب فتًى من أبناء الفتَّانين يُسمَّى إبراهيم بن أحمد؛ أعرفه، لا تستأهل صفاته محبة مَن بيتُه خير وتقدُّم، وأموال عريضة، ووفر تالِد، وصح عندي أنه كَشف رأسه، وأبدى وجهه، ورَمَى رَسَنه،

وحَسر مُحيَّاه، وشمَّر

عن ذراعيه، وصمَد صَمْد الشهوة، فصار حديثًا للسُّمار، ومُدافَعًا بين نقلة الأخبار، وتُهودي ذِكره في الأقطار، وجرت نقلته في الأرض راحلةً بالتعجب، ولم يحصل من ذلك إلا على كشف الغطاء، وإذاعة السر، وشنعة الحديث، وفَتْح الأحدوثة، وشُرُود محبوبه عنه جملة، والتَّحظير عليه من رؤيته البتة.

وكان غنيًّا عن ذلك وبمندوحةٍ ومعزلٍ رحبٍ عنه، ولو طوى مكنون سره وأخفى بليَّات ضميره لاستدام لباس العافية، ولم يُنهج بُرد الصيانة، ولكان له في لِقاء من بُلي به ومحادثته ومجالسته أملٌ من الآمال، وتعلُّلٌ كافٍ، وإنَّ حَبل العذر ليقطع به، والحُجة عليه قائمة، إلا أن يكون مُختلطًا في تمييزه، أو مصابًا في عقله بجليل ما فدحه، فربما آل ذلك لعذر صحيح، وأما إن كانت له بقية من عقل أو ثبتت مُسكه، فهو ظالم في تعرُّضه ما يعلم أن محبوبه يكرهه ويتأذَّى به. هذا غير صفة أهل الحب، وسيأتي هذا مفسرًا في باب الطاعة إن شاء الله تعالى.

ومن أسباب الكشف وجه ثالث وهو عند أهل العقول وجه مرذول وفعل ساقط؛ وذلك أن يرى المُحب مِن محبوبه غدرًا أو مللًا أو كراهةً، فلا يجد طريقَ الانتصاف منه إلا بما ضرره عليه أعود منه على المقصود من الكشف والاشتهار. وهذا أشدُّ العار وأقبح الشنار، وأقوى بشواهد عدم العقل ووجود السخف. وربما كان الكشف من حديث يَنتشر وأقاويل تفشو توافق قلة مبالاةٍ من المحب بذلك، ورضًى بظهور سره؛ إما لإعجاب

أو لاستظهار على بعض ما يُؤَمِّله.

وقد رأيت هذا الفعل لبعض إخواني من أبناء القوَّاد، وقرأت في بعض أخبار الأعراب أن نساءهم لا يقنعن ولا يصدقن عشق عاشق لهن حتى يُشتهر ويكشف حُبه ويجاهر ويعلن وينوِّه بذكرهن. ولا أدري ما معنى هذا، على أنه يُذكر عنهن العفاف، وأي عفاف مع امرأة أقصى مُناها وسرورها الشهرة في هذا المعنى؟!

باب الطاعة

ومن عجيب ما يَقع في الحُب طاعةُ المحب لمحبوبه، وصرفُه طباعَه قسرًا إلى طباع من يُحبه، وربما يكون المرء شَرِسَ الخُلُق، صعب الشكيمة، جموح القياد، ماضي العزيمة، حميَّ الأنف، أبيَّ الخَسف، فما هو إلا أن يتنسم نسيمَ الحب، ويتورَّط غمره، ويعوم في بحره، فتعود الشراسة لِيانًا، والصعوبة سهلةً، والمضاء كلالةً، والحمية استسلامًا.

وربما كان المحبوب كارهًا لإظهار الشكوى، متبرمًا بسماع الوَجد؛ فترى المُحب حينئذٍ يكتُم حزنه، ويكظِم أسفه، ويَنطوي على علَّته، وإن الحبيب مُتجنٍّ، فعندها يقع الاعتذار عن كل ذنب والإقرار بالجريمة والمرء منها بريء؛ تسليمًا لقوله، وتركًا لمخالفته. وإني لأعرف من دُهي بمثل هذا فما كان ينفكُّ من توجيه الذنوب نحوه ولا ذنب له، وإيقاع العتاب عليه والسخط وهو نقي الجلد.

ولا يقولنَّ قائل إن صبر المحب على ذلَّة المحبوب دَناءةٌ في النفس؛ فقد أخطأ، وقد علمنا أن المحبوب ليس كفوًا ولا نظيرًا فيُقارض بأذاه، وليس سبُّه وجفاه مما يُعيَّر به الإنسان ويبقى ذكره على الأحقاب، ولا يقع ذلك في مجالس الخلفاء ولا في مقاعد الرؤساء فيكون الصبرُ جارًّا للمذلة، وضراعة قائدة للاستهانة؛ فقد ترى الإنسان لا يكلَف بأَمَته التي يملك رقها، ولا يحول حائل بينه وبين التعدي عليها، فكيف الانتصارُ منها؟ وسبل الامتعاض من السبِّ غير هذه، إنما ذلك بين عِلْية الرجال الذين

تحصل أنفاسهم وتتبع معاني كلامهم فتوجه لها الوجوه البعيدة، لأنهم لا يُوقعونها سدًى، ولا يُلقونها هملًا. وأما المحبوب فصمدة ثابتة، وقضيب مُنآد، يجفو ويرضى متى شاء لا لمعنًى.

وفي ذلك أقول:

لَـيْسَ التَّــذَلُّلُ فِي الهَـوَى يُسْـتَنْكَرُ فَالحُـــبُّ فِيـــهِ يَخضَــعُ المُسْـــتَكْبِرُ
لَا تَعْجَبُــوا مِـــنْ ذِلَّـــتِي فِي حَالَـــةٍ قَـــدْ ذَلَّ فِيهَـــا قَبْلِـــيَ المُسْتَبْصِـــرُ
لَـــيْسَ الحَبِيـــبُ مُمَـــاثلًا وُمكَافِيًـــا فَيَكُـــونَ صَـــبْرُكَ ذِلَّـــةً إِذْ تَصْـــبِرُ
تُفَّاحَـــةٌ وَقَعَـــتْ فَـــآلَمَ وَقْعُهَـــا هَـــلْ قَطْعُهَـــا مِنْـــكَ انْتِصَـــارٌ يُـــذْكَرُ

خبر

ومن عجيب طاعة المُحب لمحبوبه أني أعرف مَن كان سَهِر الليالِيَ الكثيرة، ولقي الجهد الجاهِد، فقطعت قلبَه ضروبُ الوَجْد، ثم ظفر بِمن يُحب وليس به امتناع ولا عنده دفع، فحين رأى منه بعضَ الكراهة لما نَواه تركه وانصرف عنه، لا تعففًا ولا تخوُّفًا، لكن توقُّفًا عند مُوافقته رضاه، ولم يجد من نفسه مُعينًا على إتيان ما لم يَرَ له إليه نشاطًا وهو يَجد ما يجد. وإني لأعرف من فعل هذا الفعل ثم تندَّم لعذر ظهر من المحبوب.

خبر

ولقد سألني يومًا أبو عبد الله مُحَمَّد بن كُليب، من أهل القيروان، أيام كوني بالمدينة، وكان طويل اللسان جدًّا، مثقفًا للسؤال في كل فن، فقال لي وقد جرى بعض ذكر الحب ومعانيه: إذا كره مَن أحب لقائي وتجنَّب قُربي،

فما أصنع؟ قلت: أرى أن تسعى في إدخال الرَّوْح على نفسك بلقائه وإن كره. فقال: لكني لا أرى ذلك، بل أوثر هواه على هواي، ومُراده على مرادي، وأصبر ولو كان في ذلك الحَتف. فقلت له: إني إنما أحببتُه لنفسي ولالتذاذها بصورته، فأنا أتبع قياسي وأقود أَصلي وأقفو طريقتي في الرغبة في سرورها. فقال لي: هذا ظلم من القياس، أشد من الموت ما تمني له الموت، وأعز من النفس ما بذلت له النفس.

فقلت له: إن بذلت نفسك لم يكن اختيارًا، بل كان اضطرارًا، ولو أمكنك ألَّا تبذلها لما بذلتها، وتركُك لقاءه اختيارًا منك أنت فيه ملوم لإضرارك بنفسك، وإدخالك الحتف عليها. فقال لي: أنت رجل جدليٌّ، ولا جدل في الحب يلتفت إليه. فقلت له: إذًا كان صاحبه مئوفًا. فقال: وأيُّ آفة أعظم من الحب؟!

باب المخالفة

وربما اتبع المحب شهوتَه وركب رأسه فبلغ شِفاءه من محبوبه، وتعمَّد مسرته منه على كل الوجوه سخط أو رضي. ومَن ساعده على الوقت هذا وثبت جنانُه وأُتِيحت له الأقدار، استوفى لذته جميعها، وذهب غمُّه، وانقطع همُّه، ورأى أمله، وبلغ مرغوبه. وقد رأيتُ مَن هذه صفتُه.

وفي ذلك أقول أبياتًا، منها:

إِذَا أَنَا بَلَّغْتُ نَفْسِي المُنَى ... مِنْ رَشَأٍ مَا زَالَ لِي مُمْرِضَا

فَمَا أُبَالِي الكُرْهَ مِنْ طَاعَةٍ ... وَلَا أُبَالِي سَخَطًا مِنْ رِضَا

إِذَا وَجَدْتُ المَاءَ لَا بُدَّ أَنْ ... أُطْفِي بِهِ مُشْعَلَ جَمْرِ الغَضَا

باب العاذل

وللحب آفات، فأوَّلها العاذل. والعذَّال أقسام، فأصلهم صديقٌ قد أسقطتَ مئونةَ التحفظ بينك وبينه، فعَذْلُه أفضل من كثير المساعدات؟ وهي من الحظ والنهي، وفي ذلك زاجر للنفس عجيب، وتقوية لطيفة لها عرض، وعمل ودواء تشتد عليه الشهوة، ولا سيما إن كان رفيقًا في قوله، حسن التوصل إلى ما يورد من المعاني بلفظه، عالمًا بالأوقات التي يؤكِّد فيها النهي، وبالأحيان التي يزيد فيها الأمر، والساعات التي يكون فيها واقفًا بين هذين، على قدر ما يرى من تسهل العاشق وتوعُّره، وقَبوله وعصيانه.

ثم عاذل زاجر لا يُفيق أبدًا من الملامة، وذلك خطب شديد وعبء ثقيل. وَوقع لي مثلُ هذا، وإن لم يكن من جنس الكتاب ولكنه يُشبهه، وذلك أن أبا السريِّ عمار بن زياد صديقَنا أكثرَ من عذلي على نحو نحوتُه، وأعان عليَّ بعض من لامني في ذلك الوجه أيضًا، وكنت أظن أنه سيكون معي، مُخطئًا كنتُ أو مصيبًا؛ لوَكيد صداقتي وصحيح أُخوَّتي به.

ولقد رأيت مَن اشتدَّ وَجْده وعَظُم كلفه حتى كان العَذْل أحبَّ شيء إليه، ليُري العاذلَ عصيانَه ويستلذَّ مخالفته، ويحصِّل مقاومته للأئمة وغلبته إياه؛ كالملك الهازم لعدوه، والمجادل الماهر الغالب لخصمه، ويُسَر بما يقع منه في ذلك، وربما كان هو المستجلب لعذل العاذل بأشياء يوردها توجب ابتداء العذل.

وفي ذلك أقول أبياتًا، منها:

أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيَّ اللَّوْمُ وَالعَذل ... كَيْ أَسْمَعَ اسْمَ الَّذِي ذِكْرَاهُ لِي أَمَلُ
كَأَنَّنِي شَارِبٌ بِالعذلِ صَافِيَةً ... وَبِاسْمِ مَوْلَايَ بَعْدَ الشُّرْبِ أَنْتَقِلُ

باب الرقيب

ومن آفات الحُبِّ الرقيبُ، وإنه لحُمَّى باطنة، وبرسامٌ مُلحٌّ، وفكرٌ مُكِبٌّ. والرقباء أقسام، فأولهم مُثْقِل بالجلوس غير متعمِّد في مكانٍ اجتمع فيه المرء مع محبوبه، وعزما على إظهار شيءٍ من سرهما والبوح بوَجْدهما والانفراد بالحديث. ولقد يعرض للمُحب من القلق بهذه الصفة ما لا يعرض له مما هو أشد منها. وهذا وإن كان يزول سريعًا، فهو عائق حالَ دون المُراد، وقطع متوفر الرجاء.

خبر

ولقد شاهدت يومًا مُحبين في مكانٍ قد ظنَّا أنهما انفردا فيه، وتأهَّبا للشكوى، فاستحليا ما هما فيه من الخلوة، ولم يكن الموضع حمًى، فلم يلبثا أن طلع عليهما من كانا يَستثقلانِه، فرَأى فَعَدل إليَّ وأطال الجلوس معي، فلو رأيتَ الفتى المحب وقد تمازج الأسفُ البادي على وجهه مع الغضب لرأيت عجبًا.

ثم رقيب قد أحس من أمرهما بطَرف، وتوجَّس من مذهبهما شيئًا، فهو يريد أن يستبين حقيقة ذلك، فيُدمن الجلوس، ويطيل القعود، ويتخفى بالحركات، ويرمُق الوُجوه، ويحصِّل الأنفاس. وهذا أعدى من الجرب. وإني لأعرف مَن هَمَّ أن يُباطش رقيبًا هذه صفتُه.

ثم رقيب على المحبوب، فذلك لا حيلةَ فيه إلا بترضية، وإذا أُرضِي فذلك غاية اللذة، وهذا الرقيب هو الذي ذكرتْه الشعراء في أشعارها.

ولقد شاهدتُ من تلطَّف في استرضاء رقيبٍ حتى صار الرقيبُ عليه رقيبًا له، ومتغافلًا في وقت التغافل، ودافعًا عنه، وساعيًا له. ففي ذلك أقول:

وَرُبَّ رَقِيبٍ أَرْقَبُوهُ فَلَمْ يَزَل عَلَى سَيِّدِي عَمْدًا لِيُبْعِدَنِي عَنْهُ
فَمَا زَالَتِ الأَلْطَافُ تَحْكُمُ أَمْرَه إِلَى أَنْ غَدَا خَوْفِي لَهُ آمنًا مِنْهُ
وَكَانَ حُسَامًا سُلَّ حَتَّى يَهُدنِي فَعَادَ مُحِبًّا مَا لِنِعْمَتِهِ كُنْهُ

وإني لأعرف مَن رقَّب على بعض مَن كان يُشفق عليه رقيبًا وَثِق به عند نفسه، فكان أعظمَ الآفة عليه، وأصلَ البلاء فيه.

وأما إذا لم يكن في الرقيب حيلة، ولا وُجد إلى ترضِّيه سبيل؛ فلا طمع إلا بالإشارة بالعين همسًا وبالحاجب أحيانًا، والتعريض اللطيف بالقول، وفي ذلك مُتعة وبلاغ إلى حين يقنع به المُشتاق.

وأشنع ما يكون الرقيب إذا كان ممن امتُحن بالعشق قديمًا، ودُهي به، وطالت مدته فيه ثم عُري عنه بعد إحكامه لمعانيه، فكان راغبًا في صيانة مَن رُقِّب عليه، فتبارك الله أي رقبة تأتي منه؟! وأي بلاء مصبوب يحلُّ على أهل الهوى من جهته؟! وفي ذلك أقول:

رَقِيبٌ طَالَمَا عَرَفَ الغَرَامَا وَقَاسَى الوَجْدَ وَامْتَنَعَ المَنَامَا
وَلَاقَى فِي الهَوَى أَلَمًا أَلِيمًا وَكَادَ الحُبُّ يُورِدُهُ الحِمَامَا
وَأَتْقَنَ حِيلَةَ الصَّبِّ المُعَنَّى وَلَمْ يَضَعِ الإِشَارَةَ وَالكَلَامَا
وَأَعْقَبَهُ التَّسَلِّي بَعْدَ هَذَا وَصَارَ يَرَى الهَوَى عَارًا وَذَامَا

وَصَـــيَّرَ دُونَ مَـــنْ أَهْـــوَى رَقِيبًـــا لِيُبْعِـــدَ عَنْـــهُ صَـــبًّا مُسْـــتَهَامَا

فَـــأَيُّ بَلِيَّـــةٍ صُـــبت عَلَيْنَـــا وَأَيُّ مُصِـــيبَةٍ حَلَّـــتْ لِمَامـــا؟

ومن طريف معاني الرقباء أني أعرف محبَّين مذهبُهما واحد في حُب محبوب واحد بعينه، فلعهدي بهما كُل واحد منهما رقيب على صاحبه.

كَالكَلْـــبِ فِي الآرِي لَا يَعْتَلِـــف وَلَا يُخَلِّـــي الغَيْـــرَ أَنْ يَعْتَلِـــف

باب الواشي

ومن آفات الحُب الواشي، وهو على ضربين؛ أحدهما واشٍ يريد القَطع بين المتحابين فقط، وإن هذا لأفترهما سوأةً، على أنه السم الذُّعاف، والصاب المُمقر، والحتف القاصد، والبلاء الوارد. وربما لم يَنجع ترقيشه. وأكثر ما يكون الواشي فإلى المحبوب، وأما المحب فهيهات؛ حال الجريض دون القريض، ومنع الحَرَب من الطرَب؛ شغله بما هو مانع له من استماع الواشي. وقد علم الوُشاة ذلك، وإنما يقصدون إلى الخليِّ البال، الصائل بحوزة الملك، المتعتب عند أقل سبب.

وإن للوُشاة ضروبًا من التَّنقيل، فمنها أن يذكر للمحبوب عمن يحب أنه غير كاتم للسر. وهذا مكان صعب المُعاناة، بطيء البُرء إلا أن يوافق معارضًا للمُحب في محبته، وهذا أمر يوجب النِّفار، فلا فرج للمحبوب إلا بأن تُساعده الأقدار بالاطلاع على بعض أسرار من يُحب، بعد أن يكون المحبوب ذا عقل، وله حظ من تمييز، ثم يَدعه والمُطاولة، فإذا تكذَّب عنده نَقْل الواشي مع ما أظهر من الجفاء والتحفظ ولم يسمع لسره إذاعة؛ علم أنه إنما زور له الباطل، واضمحل ما قام في نفسه.

ولقد شاهدت هذا بعينه لبعض المُحبين مع بعض من كان يحب، وكان المحبوب شديدَ المراقبة عظيم الكتمان، وكثر الوشاة بينهما حتى ظهرت أعلام ذلك في وجهه، وحدَث في حُب لم يكن، وركبته وجمة، وأظلته فكرة، ودهمته حيرة، إلى أن ضاق صدره وباح بما نُقل إليه. فلو شاهدت مقام

المحب في اعتذاره، لعلمت أن الهوى سلطان مُطاع، وبناء مشدود الأواخي، وسنان نافذ، وكان اعتذاره بين الاستسلام والاعتراف، والإنكار والتوبة والرمي بالمقاليد، فبعد لأيٍ ما صلح الأمر بينهما. وربما ذكر الواشي أن ما يُظهر المحب من المحبة ليست بصحيحة، وأن مذهبه في ذلك شِفاء نفسه وبلوغ وَطره.

وهذا فصل وإن كان شديدًا في النقل فهو أيسر مُعاناة مما قبله، فحالة المحب غير حالة المتلذذ، وشواهد الوجد متفرقة بينهما. وقد وقع من هذا نُبذ كافية في باب الطاعة. وربما نقل الواشي أن هوى العاشق مشترك، وهذه النار المُحرقة، والوَجع الفاشي في الأعضاء، وإذا وافق الناقل لهذه المقالة أن يكون المُحب فتًى حسنَ الوجه، حُلو الحركات، مرغوبًا فيه، مائلًا إلى اللذات، دُنياوي الطبع، والمحبوب امرأة جليلة القدر سرية المنصب، فأقرب الأشياء سَعْيها في إهلاكه، وتصدِّيها لحتفه.

فكم صريع على هذا السبب! وكم مَن سُقي السم فقَطع أمعاءه لهذا الوجه! وهذه كانت ميتة مروان بن أحمد بن حدير، والد أحمد المتنسك، وموسى وعبد الرحمن، المعروفَين بابنَي لبنى، من قِبل قَطْر الندى جاريته.

وفي ذلك أقول محذِّرًا لبعض إخواني قطعةً، منها:

وَهَـلْ يَأْمَـنُ النِّسْـوَانَ غَيْـرُ مُغَفَّـلٍ ... جَهُـولٍ لِأَسْـبَابِ الـرَّدَى مُتَـأَرِّضِ
وَكَـمْ وَارِدٍ حَوْضًـا مِـنَ المَوْتِ أَسْـوَد ... تَرَشَّـفَهُ مِـنْ طيِّـبِ الطَّعْـمِ أَبْـيَض

والثاني واشٍ يَسعَى للقَطْع بين المُحبين لينفرد بالمحبوب ويستأثر به. وهذا أشد شيء وأقطعه، وأجزم لاجتهاد الواشي واستفادة جُهده.

ومن الوُشاة جنس ثالث، وهو واشٍ يَسعى بهما جميعًا، ويكشف سرَّهما، وهذا لا يُلتفت إليه إذا كان المحب مساعدًا.

ولا بد أن أورد ما يُشبه ما نحن فيه، وإن كان خارجًا منه، وهو شيء في بيان التنقيل والنمائم؛ فالكلام يدعو بعضُه بعضًا كما شرطنا في أول الرسالة، وما في جميع الناس شر من الوُشاة، وهم النمامون، وإن النميمة لطَبْعٌ يدُل على نتن الأصل، ورداءة الفَرع، وفساد الطبع، وخُبث النشأة، ولا بد لصاحبه من الكذب.

والنميمة فرع من فروع الكذب، ونوع من أنواعه، وكل نمَّام كذَّاب، وما أحببت كذابًا قط، وإني لأسامح في إخاء كل ذي عَيب وإن كان عظيمًا، وأَكِلُ أمره إلى خالقه عزَّ وجل، وآخذ ما ظَهر من أخلاقه حاشا مَن أعلمه يكذب؛ فهو عندي ماحٍ لكل محاسنه، ومُعَفٍّ على جميع خِصاله، ومُذهِبٌ كلَّ ما فيه، فما أرجو عنده خيرًا أصلًا؛ وذلك لأن كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه، وكل ذامٍّ فقد يمكن الاستتار به والتوبة منه حاشا الكذب؛ فلا سبيلَ إلى الرجعة عنه، ولا إلى كتمانه حيث كان.

وما رأيت قط ولا أخبرني مَن رأى كذَّابًا ترك الكذب ولم يعد إليه، ولا بدأت قط بقطيعة ذي معرفة إلا أن أطلع له على الكذب، فحينئذٍ أكون أنا القاصد إلى مجانبته، والمتعرِّض لمتاركته، وهي سِمة ما رأيتُها قط في أحد إلا وهو مَزْنون في نفسه إليه بشق، مغموز عليه لعاهة سوءٍ في ذاته. نعوذ بالله من الخذلان.

فالكذب أصل كل فاحشة، وجامع كل سوء، وجالبٌ لمقت الله عز

وجل. وعن أبي بكر الصديق ﷺ أنه قال: لا إيمان لمن لا أمانة له.

وعن ابن مسعود ﷺ أنه قال: كل الخلال يُطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: ثلاث من كُنَّ فيه كان منافقًا: من إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان. وهل الكُفر إلا كذب على الله عز وجل؟ والله الحق، وهو يحب الحق، وبالحق قامت السموات والأرض.

وما رأيت أخزى من كذَّاب، وما هلكت الدول، ولا هلكت الممالك، ولا سُفكت الدماء ظلمًا، ولا هُتكت الأستار بغير النمائم والكذب، ولا أُكِّدت البغضاء والإحَن المُردية إلا بنمائم لا يَحْظى صاحبها إلا بالمَقت والخزي والذل، وأن ينظر منه الذي ينقل إليه، فضلًا عن غيره، بالعين التي ينظر بها من الكلب.

وكان لي صديق مرةً، وكثر التدخيل بيني وبينه حتى كَدح ذلك فيه واستبان في وجهه وفي لحظه، وطُبعتُ على التأني والتربُّص والمُسالمة ما أمكنت، ووجدت بالانخفاض سبيلًا إلى معاودة المودة، فكتبت إليه شعرًا، منه:

وَلِي فِي الَّـذي أُبْـدِي مَـرَامٍ لَـوَ انَّهـا بَدَتْ مَا ادَّعَى حُسْنَ الرِّمَايَةِ وَهْرز

وأقول مخاطبًا لعُبيد الله بن يحيى الجزيري الذي يحفظ لعمِّه الرسائل البليغة، وكان طبْعُ الكذب قد استولى عليه، واستحوذ على عقله، وألفه ألفة النفس الأمل، ويؤكِّد نقلَه وكذبَه بالأيمان المؤكّدة المُغلَّظة، مجاهرًا بها أكذب من السراب، مستهترًا بالكذب مشغوفًا به، لا يزال يحدث من قد

صحَّ عنده أنه لا يصدقه، فلا يزجره ذلك عن أن يحدث بالكذب:

بَـدَا كُـلُّ مَـا كَتَّمته بَـيْنَ مُخْـبِرٍ   وَحَـالٍ أَرَتْـنِي قُـبْحَ عَقْـدِكَ بَيِّنـا

وَكَـمْ حَالَـةٍ صَـارَتْ بَيَـانًا بِحَالَـةٍ   كَمَـا تُثْبِـتُ الأَحْكَـامُ بِالحَبَـلِ الـزِّنا

وليس من نَبَّه غافلًا، أو نصح صديقًا، أو حفظ مسلمًا، أو حكى عن فاسق، أو حدَّث عن عدو ما لم يكن يَكذِب ولا يكذب ولا تعمد الضغائن متنقِّلًا.

وهل هلك الضعفاء وسقط من لا عقل له إلا في قلة المعرفة بالناصح من النمام؟ وهما صفتان متقاربتان في الظاهر، متفاوتتان في الباطن، إحداهما داء والأخرى دواء، والثاقب القريحة لا يخفى عليه أمرهما، لكن الناقل من كان تنقيله غيرَ مرضيٍّ في الديانة، ونوى به التشتيت بين الأولياء، والتضريب بين الإخوان، والتحريش والتوبيش والترقيش. فمن خاف إن سلك طريق النصيحة أن يقع في طريق النميمة، ولم يثق لنفاذ تمييزه ومضاء تقديره فيما يَرِدُه من أمور دنياه ومعاملة أهل زمانه، فليجعل دينه دليلًا له وسراجًا يستضيء به، فحيثما سلك به سلك، وحيثما أوقفه وقف؛ فشارع الشريعة وباعث الرسول عليه السلام ومرتب الأوامر والنواهي أعلم بطريق الحق، وأدرى بعواقب السلامة ومغبَّات النجاة من كل ناظر لنفسه بزعمه، وباحث بقياسه في ظنه.

باب الوصل

ومن وجوه العِشقِ الوصلُ، وهو حظ رفيع، ومرتبة سريَّة، ودرجة عالية، وسعد طالع، بل هو الحياة المجددة، والعيش السنيُّ، والسرور الدائم، ورحمة من الله عظيمة. ولولا أن الدنيا دار مَمَرٍّ ومحنة وكدر، والجنة دار جزاء وأمان من المكاره؛ لقلنا إن وصل المحبوب هو الصفاء الذي لا كَدر فيه، والفَرح الذي لا شائبة ولا حزن معه، وكمال الأماني، ومنتهى الأراجي. ولقد جرَّبت اللذات على تصرُّفها، وأدركت الحظوظ على اختلافها، فما للدنوِّ من السلطان، ولا المال المُستفاد، ولا الوجود بعد العدم، ولا الأوبة بعد طول الغَيبة، ولا الأمن بعد الخوف، ولا التروُّح على المال، من الموقع في النفس، ما للوصل؛ ولا سيما بعد طول الامتناع، وحلول الهجر، حتى يتأجج عليه الجوى، ويتوقد لهيب الشوق، وتتصرم نار الرجاء.

وما أصناف النبات بعد غِبِّ القطر، ولا إشراق الأزاهير بعد إقلاع السحاب الساريات في الزمان السجسج، ولا خرير المياه المتخللة لأفانين النوار، ولا تأنق القصور البيض قد أحدقت بها الرياض الخضر؛ بأحسنَ من وصل حَبيب قد رُضيت أخلاقه، وحُمدت غرائزه، وتقابلت في الحسن أوصافه، وإنه لمُعجز ألسنة البلغاء، ومقصِّر فيه بيان الفصحاء، وعنده تطيش الألباب، وتعزب الأفهام.

ومن لذيذ معاني الوصلِ المواعيدُ، وإن للوعد المُنتظر مكانًا لطيفًا من شِغاف القلب، وهو ينقسم قسمين؛ أحدهما: الوعد بزيارة المحب لمحبوبه،

وفيه أقول قطعةً، منها:

أُسَامِرُ البَدْرَ لَمَّا أَبْطَأْت وَأَرَى فِي ... نُورِهِ مِنْ سَنَا إِشْرَاقِهَا عَرَضَا

فَبِتُّ مُشْتَرِطًا وَالوُدُّ مُخْتَلِطًا وَالوَصْلُ ... مُنْبَسِطًا وَالهَجْرُ مُنْقَبِضَا

والثاني انتظار الوعد من المحب أن يزور محبوبه. وإنَّ لمبادي الوصل وأوائل الإسعاف لتَوَجُّا على الفؤاد ليس لشيء من الأشياء. وإني لأعرف من كان مُمتحنًا بهوًى في بعض المنازل المُصاقبة، فكان يصل متى شاء بلا مانع، ولا سبيل إلى غير النظر والمُحادثة زمانًا طويلًا، ليلًا متى أحب ونهارًا، إلى أن ساعدته الأقدار بإجابة، ومكَّنته بإسعادٍ بعد يأسه، لطول المدة. ولعهدي به قد كاد أن يختلط عقله فرحًا، وما كاد يتلاحق كلامه سرورًا.

خبر

وإني لأعرف جاريةً اشتد وَجْدها بفتًى من أبناء الرؤساء، وهو لا علم عنده، وكثر غمُّها وطال أسفها إلى أن ضَنِيتْ بحُبه، وهو بغرارة الصِّبَا لا يشعر، ويَمنعُها من إبداء أمرها إليه الحياءُ منه؛ لأنها كانت بكرًا بخاتَمها، مع الإجلال له عن الهجوم عليه بما لا تدري لعله لا يوافقه؛ فلما تمادى الأمر وكانا إلفين في النشأة، شكَت ذلك إلى امرأة جزلة الرأي كانت تثق بها لتَولِّيها تربيتَها، فقالت لها: عرِّضي له بالشعر.

ففعلت المرَّة بعد المرَّة وهو لا يأبه في كل هذا، ولقد كان لَقِنًا ذكيًّا لم يظن ذلك فيميل إلى تنتيش الكلام بوهمه، إلى أن عِيل صبرُها، وضاق صدرها، ولم تُمسك نفسها في قَعدة كانت لها معه في بعض الليالي منفردَيْن، ولقد كان يعلم الله عفيفًا مُتصاونًا بعيدًا عن المعاصي، فلما حان قيامها عنه

بَدرت إليه فقبَّلته في فمه، ثم ولت في ذلك الحين ولم تكلمه بكلمة، وهي تتهادى في مشيها، فبُهتَ وسُقط في يده وفُت في عضده، ووَجد في كبده، وعلَتْه وجمة، فما هو إلا أن غابت عنه ووقع في شَرَك الرَّدى، واشتعلت في قلبه النار، وتصعدت أنفاسه، وترادفت أوجاله، وكثر قلقه، وطال أرقه، فما غمض تلك الليلة عينًا، وكان هذا بدء الحب بينهما دهرًا، إلى أن جَذَّت جملتها يدُ النوى.

وإن هذا لمن مصائد إبليس، ودواعي الهوى التي لا يقف لها أحد إلا من عصمه الله عز وجل. ومن الناس من يقول: إن دوام الوصل يُودي بالحب. وهذا هجين من القول، إنما ذلك لأهل المَلَل، بل كلما زاد وصلًا زاد اتصالًا.

وعني أخبرك أني ما رويتُ قط من ماء الوصل ولا زادني إلا ظمأً. وهذا حكم مَن تداوى برأيه وإنْ رَبَّهُ عنه سريعًا. ولقد بلغتُ من التمكُّن بمن أُحب أبعد الغايات التي لا يجد الإنسان وراءها مرمًى، فما وجدتُني إلا مستزيدًا، ولقد طال بي ذلك فما أحسست بسآمةٍ ولا رهقتني فترة. وقد ضمَّني مجلس مع بعض من كنتُ أحب، فلم أُجل خاطري في فن من فنون الوصل إلا وجدته مقصرًا عن مرادي، وغير شافٍ وَجْدي، ولا قاضٍ أقلَّ لُبانة من لباناتي، ووجدتُني كلما ازددتُ دنوًّا ازددتُ ولوعًا، وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعي، فقلت في ذلك المجلس:

وَدِدْتُ بِأَنَّ القَلْـــبَ شُـــقَّ بِمُدْيَـــةٍ ... وَأُدْخلـتِ فِيـهِ ثُمَّ أُطْبِـقَ فِي صَـدْرِي

فَأَصْـــبَحْتِ فِيـــهِ لَا تَحُلِّـــينَ غَيْـــرَهُ ... إِلَى مُقْتَضَـى يَـوْمِ القِيَامَـةِ وَالحَشْـرِ

تَعِيشِـينَ فِيـهِ مِـا حَيِيـتُ فَـإِنْ أَمُـتْ سَكَنْتِ شِغَافَ القَلْبِ فِي ظُلَمِ القَبْرِ

وما في الدنيا حالة تَعدل محبَّين إذا عُدما الرقباء، وأمنا الوشاة، وسلما من البَيْن، ورغبا عن الهجر، وبَعُدا عن الملل، وفقدا العُذَّال، وتوافقا في الأخلاق، وتكافيا في المحبة، وأتاح الله لهما رزقًا دارًّا، وعيشًا قارًّا، وزمانًا هاديًا، وكان اجتماعُهما على ما يُرضي الرب من الحال، وطالت صُحبتهما واتصلت إلى وقت حُلول الحِمامِ الذي لا مردَّ له ولا بد منه. هذا عطاء لم يحصُل عليه أحد، وحاجة لم تُقْض لكل طالب، ولولا أن مع هذه الحال الإشفاق من بَغتات المقادير المحكمة في غيب الله عز وجل، من حُلول فراق لم يكتسب، واخترام منية في حال الشباب أو ما أشبه ذلك، لقلت إنها حال بعيدة من كل آفة، وسليمة من كل داخلة.

ولقد رأيت مَن اجتمع له هذا كُله، إلا أنه كان دُهي فيمن كان يحبه بشَراسة الأخلاق، ودالَّة على المحبة، فكانا لا يتهنَّيان العيش، ولا تطلع الشمس في يوم إلا وكان بينهما خلاف فيه، وكلاهما كان مطبوعًا بهذا الخُلق؛ لثقة كل واحد منهما بمحبة صاحبه، إلى أن دنت النَّوى بينهما، فتفرَّقا بالموت المرتَّب لهذا العالم.

وهل فيما وافق إعجاب المخلوقين، وجلا القلوب، واستمال الحواس، واستهوى النفوس، واستولى على الأهواء، واقتطع الألباب، واختلس العقول؛ مستحسن يعدل إشفاق مُحب على محبوب؟ ولقد شاهدت مِن هذا المعنى كثيرًا، وإنه لمن المَناظر العجيبة الباعثة على الرقَّة الرائقة المعنى، لا سيما إن كان هوًى يتكتم به. فلو رأيت المحبوب حين يعرض بالسؤال

عن سبب تَغضُّبه بمُحبِّه، وخجلته في الخروج مما وقع فيه بالاعتذار، وتوجيهه إلى غير وجهه، وتحيُّله في استنباط معنًى يُقيمه عند جلسائه، لرأيت عجبًا ولذة مخفية لا تقاومها لذة.

وما رأيت أجلب للقلوب، ولا أغوص على حياتها، ولا أنفذ للمقاتل من هذا الفعل. وإن للمُحبين في الوصل من الاعتذار ما أعجزَ أهلَ الأذهان الذكية والأفكار القوية، وإني لأعلم فتًى وجاريةً، كان يكلف كلُّ واحد منهما بصاحبه، فكانا يَضطجعان إذا حضرهما أحد وبينهما المسند العظيم من المساند الموضوعة عند ظهور الرؤساء على الفرش، ويلتقي رأساهما وراء المسند، ويُقَبِّل كل واحد منهما صاحبه ولا يُرَيان، وكأنهما إنما يتمدَّدان من الكلل. ولقد كان بلغ من تكافئهما في المودة أمرًا عظيمًا، إلى أن كان الفتى المحب ربما استطال عليها.

ولقد حدَّثتني امرأة أثق بها أنها شاهدت فتًى وجاريةً كان يَجد كل واحد منهما بصاحبه فضل وَجْد، قد اجتمعا في مكان على طَرب، وفي يد الفتى سِكِّين يقطع بها بعض الفواكه، فجرَّها جرًّا زائدًا فقطع إبهامه قطعًا لطيفًا ظهر فيه دم، وكان على الجارية غلالة قصب خَزائنية لها قيمة، فصرفت يدها وخرقتها وأخرجت منها فضلة شدَّ بها إبهامه. وأما هذا الفعل للمُحب فقليل فيما يجب عليه، وفرض لازم وشريعة مؤداة، وكيف لا وقد بذل نفسه ووهب روحه، فما يمنع بعدها؟!

خبر

ولقد حدثني ثقة من إخواني جليل من أهل البيوتات أنه كان علق في

صباه جارية كانت في بعض دور آله، وكان ممنوعًا منها، فهام عقلُه بها. قال لي: فتنزهنا يومًا إلى بعض ضياعنا بالسهلة غربيَّ قرطبة مع بعض أعمامي، فتمشَّينا في البساتين، وأُبعدنا عن المنازل، وانبسطنا على الأنهار، إلى أن غيَّمت السماء وأقبل الغيث، فلم يكن بالحضرة من الغطاء ما يكفي الجميع. قال: فأمر عمي ببعض الأغطية فأُلقي عليَّ، وأمرها بالاكتنان معي، فظن بما شئت من التمكُّن على أعين الملأ وهم لا يشعرون، ويا لك من جمع كخَلاء، واحتفال كانفراد! قال لي: فوالله لا نسيت ذلك اليوم أبدًا، ولعهدي به وهو يحدثني بهذا الحديث وأعضاؤه كلها تضحك، وهو يهتز فرحًا على بُعد العهد وامتداد الزمان.

خبر

ومن بديع الوصل ما حدَّثني به بعض إخواني أنه كان في بعض المنازل المُصاقبة له هوًى، وكان في المنزلين موضع مطلع من أحدهما على الآخر، فكانت تقف له في ذلك الموضع، وكان فيه بعضُ البُعد، فتسلم عليه ويدها ملفوفة في قميصها، فخاطبها مستخبرًا لها عن ذلك، فأجابته: إنه ربما أُحِسَّ من أمرنا شيء فوقف لك غيري فسلَّم عليك فرددتَ عليه، فصح الظن، فهذه علامة بيني وبينك؛ فإذا رأيت يدًا مكشوفة تشير نحوك بالسلام فليست يدي، فلا تُجاوب.

باب الهجر

ومن آفات الحُبِّ أيضًا الهجرُ، وهو على ضروب؛ فأولها هجر يُوجبه تحفُّظ من رقيب حاضر، وإنه لأحلى من كل وصل، ولولا أن ظاهر اللفظ وحكم التسمية يُوجب إدخاله في هذا الباب لرجعت به عنه، ولأجْللته عن تسطيره فيه؛ فحينئذٍ ترى الحبيب مُنحرفًا عن مُحبه، مقبلًا بالحديث على غيره، مُعرضًا بمعرض لئلا تلحق ظنته أو تسبق استرابته، وترى المحب أيضًا كذلك، ولكنَّ طبعه له جاذب، ونفسه له صارفة بالرغم؛ فتراه حينئذٍ مُنحرفًا كمُقبِل، وساكتًا كناطق، وناظرًا إلى جهة نفسه في غيرها. والحاذق الفطن إذا كشف بوهمه عن باطن حديثهما عَلِمَ أن الخافي غير البادي، وما جَهَر به غير نفس الخَبر. وإنه لمن المَشاهد الجالبة للفتن، والمناظر المحركة للسواكن، الباعثة للخواطر، المهيجة للضمائر، الجاذبة للفتوة.

ثم هَجْر يُوجبه التذلُّل، وهو ألذُّ من كثير الوصال؛ ولذلك لا يكون إلا عن ثِقة كُل واحد من المتحابِّين بصاحبه، واستحكام البصيرة في صحة عَقده؛ فحينئذٍ يُظهر المحبوب هجرانًا ليرى صبر مُحبه؛ وذلك لئلا يصفوَ الدهرَ البتة، وليأسف المحب إن كان مفرط العشق عند ذلك لا لما حلَّ، لكن مخافة أن يترقَّى الأمر إلى ما هو أجلُّ.

يكون ذلك الهجر سببًا إلى غيره، أو خوفًا من آفة حادث ملل. ولقد عرض لي في الصبا هجر مع بعض من كنت آلف، على هذه الصفة، وهو لا يلبث أن يضمحل ثم يعود، فلما كثر ذلك قلت على سبيل المزاح شعرًا

بديهيًّا ختمتُ كل بيت منه بقسم من أول قصيدة طرفة بن العبد المُعلَّقة، وهي:

تـــذكرت ودا للحبيـــب كأنـــه	لخولـــة أطـــلالٌ ببرقـــة ثهمـــد
وعهـــدي بعهـــدٍ كـــان لي منـــه	ثابتٍ يلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقفـــت بـــه لا موقنـــاً برجوعـــه	ولا آيســاً أبكـــي وأبكـــي إلى الغـــد
إلى أن أطـال النـاس عـذلي وأكثـروا	يقولـــون لا تهلـــك أســـى وتجلـــد

ثم هَجْر يُوجبه العِتاب لذنب يقع من المحب، وهذا فيه بعضُ الشدة، لكن فرحة الرجعة وسُرور الرضى يعدل ما مضى؛ فإن لرضى المَحبوب بعد سخطه لذةً في القلب لا تعدلها لذة، وموقفًا من الروح لا يفوقه شيء من أسباب الدنيا. وهل شاهد مُشاهد أو رأت عين أو قام في فكرٍ ألذُّ وأشهى من مقام قد قام عنه كل رقيب، وبَعُد عنه كل بغيض، وغاب عنه كل واشٍ، واجتمع فيه مُحبَّان قد تصارما لذنب وقع من المحب منهما وطال ذلك قليلًا، وبدأ بعض الهجر ولم يكن ثَمَّ مانع من الإطالة للحديث، فابتدأ المُحب في الاعتذار والخضوع والتذلُّل والأدلة بحجته الواضحة من الإدلال والإذلال والتذمم بما سلف، فطورًا يُدلي ببراءته، وطورًا يردُّ بالعفو ويستدعي المغفرة ويُقر بالذَّنب ولا ذنب له، والمحبوب في كل ذلك ناظر إلى الأرض يُسارقه اللحظَ الخفي، وربما أدامه فيه، ثم يبسم مُخفيًا لتبسمه، وذلك علامة الرضى، ثم ينجلي مجلسهما عن قَبول العذر، ويقبل القول، وامتحت ذنوب النقل، وذهبت آثار السخط، ووقع الجواب بنعم وذنبك مغفور، ولو كان، فكيف ولا ذنب؟ وختما أمرهما بالوصل الممكن، وسُقوط

العتاب، والإسعاد، وتفرقا على هذا.

هذا مكان تَتقاصر دونه الصفات، وتتلكَّن بتحديده الألسنة. ولقد وطئتُ بساط الخلفاء وشاهدتُ محاضر الملوك فما رأيتُ هيبةً تعدل هيبة محب لمحبوبه، ورأيت تمكُّن المتغلبين على الرؤساء وتحكُّم الوزراء وانبساط مدبري الدول، فما رأيت أشد تبجُّحًا ولا أعظم سرورًا بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده، ووثق بميله إليه، وصحة مودته له.

وحضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين، ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين، فما رأيت أذل من موقف مُحب هَيمان بين يدي محبوب غضبان قد غَمره السخط، وغلب عليه الجفاء. ولقد امتحنت الأمرين، وكنت في الحالة الأولى أشدَّ من الحديد، وأنفذ من السيف، لا أجيب إلى الدنية، ولا أساعد على الخضوع، وفي الثانية أذل من الرداء، وألين من القطن، أبادر إلى أقصى غايات التذلُّل، وأغتنم فُرصة الخضوع لو نجع، وأتحلَّل بلساني، وأغوص على دقائق المعاني ببياني، وأفنن القول فنونًا، وأتصدى لكل ما يوجب الترضِّي.

والتجنِّي بعضُ عوارض الهجران، وهو يقع في أول الحب وآخره، فهو في أوله علامة لصحَّة المحبة، وفي آخره علامة لفتورها وباب للسلو.

خبر

وأذكر في مثل هذا أني كنت مجتازًا في بعض الأيام بقرطبة في مقبرة باب عامر، في لَمَّة من الطلاب وأصحاب الحديث، ونحن نريد مجلس الشيخ أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد المصري بالرصافة أستاذي وهو

ينشد لنفسه في صفة متجنٍّ معهود أبياتًا له، منها:

سَرِيعٌ إِلَى ظَهْرِ الطَّرِيقِ وَإِنَّهُ إِلَى ... نَقْضِ أَسْبَابِ المَوَدَّةِ يُسْرِعُ
يَطُولُ عَلَيْنَا أَنْ نُرَقِّعَ وُدَّهُ ... إِذَا كَانَ فِي تَرْقِيعِهِ يَتَقَطَّعُ

فوافق إنشاد البيت الأول من هذين البيتين خطور أبي الحسين بن علي الفاسي وهو يؤم أيضًا مجلس ابن أبي يزيد، فسمعه فتبسم نحونا، وطوانا ماشيًا وهو يقول: بل إلى عقد المودة إن شاء الله؛ فهو أولى. فقلت في ذلك:

دَعْ عَنْكَ نَقْضَ مَوَدَّتِي مُتَعَمِّدًا ... وَاعْقِدْ حِبَالَ وِصَالِنَا يَا ظَالِمُ
لَتَرْجِعَنَّ أَرَدْتَهُ أَوْ لَمْ تُرِدْ كُرْهًا ... لِمَا قَالَ الفَقِيهُ العَالِمُ

ويقع فيه الهجر والعتاب. ولعمري إن فيه إذا كان قليلًا للذة، وأما إذا تفاقم فهو فأل غير محمود، وأمارة وبيئة المصدر، وعلامة سوء، وهي بجملة الأمر مطية الهجران، ورائد الصريمة، ونتيجة التجنّي، وعنوان الثقل، ورسول الانفصال، وداعية القلى، ومقدِّمة الصد، وإنما يُستحسن إذا لَطُف وكان أصله الإشفاق.

وفي ذلك أقول:

لَعَلَّكَ بَعْدَ عَتبِكَ أَنْ تَجُودَا ... بِمَا مِنْهُ عَتَبْتَ وَأَنْ تَزِيدَا
فَكَمْ يَوْمٍ رَأَيْنَا فِيهِ صَحْوًا ... وَأَسْمَعَنَا بِآخِرِهِ الرُّعُودَا
وَعَادَ الصَّحْوُ بَعْدُ كَمَا عَلِمْنَا ... وَأَنْتَ كَذَاكَ نَرْجُو أَنْ تَعُودَا

وكان سبب قولي هذه الأبيات عِتاب وقع في يومٍ هذه صفتُه من أيام الربيع، فقلتُها في ذلك الوقت، وكان لي في بعض الزمن صديقان، وكانا أخوين، فغابا في سفر ثم قَدِما وقد أصابني رَمَدٌ فتأخَّرا عن عيادتي، فكتبتُ إليهما شعرًا.

ثم هجر يُوجبه الوُشاة. وقد تقدم القول فيهم وفيما يتولد من دبيب عقاربهم، وربما كان سببًا للمقاطعة البتة.

ثم هجر الملل. والملل من الأخلاق المطبوعة في الإنسان، وأحرى لمن دُهي به ألا يصفوَ له صديق، ولا يَصحَّ له إخاء، ولا يثبت على عهد، ولا يصبر على إلف، ولا تطول مُساعدته لمُحب، ولا يُعتقد منه وُدٌّ ولا بغض. وأولى الأمور بالناس ألَّا يغروه منهم، وأن يفروا عن صحبته ولقائه؛ فلن يظفروا منه بطائل؛ ولذلك أبعدنا هذه الصفة عن المُحبين، وجعلناها في المحبوبين، فهم بالجملة أهل التجنِّي والتظنِّي والتعرض للمقاطعة.

وأما من تزيَّا باسم الحُبِّ وهو مَلُولٌ فليس منهم، وحقُّه ألا يتجرع مذاقه، ويُنفى عن أهل هذه الصفة ولا يدخل في جملتهم. وما رأيت قط هذه الصفة أشد تغلبًا منها على أبي عامر مُحَمَّد بن عامر فلو وصف لي واصف بعضَ ما علمتُه منه لما صدقتُه. وأهل هذا الطبع أسرع الخلق محبةً، وأقلُّهم صبرًا على المحبوب، وعلى المكروه والصد، وانقلابهم عن الودِّ على قدر تسرُّعهم إليه؛ فلا تثِق بملول، ولا تَشغل به نفسك، ولا تُعنِّها بالرجاء في وفائه، فإن دُفعت إلى محبته ضرورةً فَعُدَّه ابنَ ساعته، واستأنفه كل حين من أحيانه بحسب ما تراه من تلوُّنه، وقابله بما يشاكله.

ولقد كان أبو عامر المُحدَّث عنه يرى الجاريةَ فلا يَصبر عنها، ويُحيق به من الاغتمام والهم ما يكاد أن يأتيَ عليه حتى يملكها، ولو حال دون ذلك شوكُ القتاد، فإذا أيقن بتصيُّرها إليه عادت المحبة نفارًا، وذلك الأنس شُرودًا، والقلق إليها قلقًا منها، ونزاعه نحوها نزاعًا عنها، فيبيعها بأوكس الأثمان. هذا كان دأبه حتى أتلف فيما ذكرنا من عشرات ألوف الدنانير عددًا عظيمًا.

وأما حسن وجهه وكمال صُورته فشيء تَقف الحدود عنه، وتَكِلُّ الأوهام عن وصف أقله، ولا يتعاطى أحد وصفه. ولقد كانت الشوارع تخلو من السيَّارة ويتعمدون الخُطور على باب داره في الشارع الآخذ من النهر الصغير على باب دارنا في الجانب الشرقي بقُرطبة إلى الدرب المتصل بقصر الزاهرة وفي هذا الدرب كانت داره، رحمه الله، ملاصقةً لنا لا لشيء إلا للنظر منه.

ولقد مات من محبَّته جَوارٍ كُنَّ علَّقْن أوهامهن به، ورثَينَ له فخانَهنَّ مما أمَّلْنه منه، فصِرْنَ رهائنَ البِلَى وقتلتهنَّ الوحدة. وأنا أعرف جاريةً منهن كانت تُسمى عفراء، عهدي بها لا تتستر بمحبته حيثما جلست، ولا تجف دموعها، وكانت قد تصيرت من داره إلى البركات الخيَّال صاحب الفتيان. ولقد كان يُخبرني عن نفسه أنه يملُّ اسمَه فضلًا عن غير ذلك.

وأما إخوانه فإنه تبدَّل بهم في عُمره على قِصَره مرارًا، وكان لا يثبُتُ على زي واحد كأبي بَراقش؛ حينًا يكون في ملابس الملوك، وحينًا في ملابس الفتَّاك.

فيجب على مَن امتُحن بمخالطة مَن هذه صفته على أي وجهٍ كان ألَّا يستفرغ عامة جُهْده في محبَّته، وأن يُقيم اليأس من دوامه خَصمًا لنفسه؛ فإذا لاحت له مخايل الملل قاطعه أيامًا حتى ينشط بالُه، ويبعد به عنه، ثم يُعاوده، فربما دامت المودَّة مع هذا. وفي ذلك أقول:

لَا تَرْجُوَنَّ مَلُولًا لَيْسَ المَلُولُ بِعُدَّهْ ... وُدُّ المَلُولِ فَدَعْهُ عَارِيَةٌ مُسْتَرَدَّهْ

ومن الهَجْر ضَربٌ يكون متولِّيه المحب، وذلك عندما يرى من جَفاء محبوبه والميل عنه إلى غيره، أو لثقيل يلازمه، فيرى الموت ويتجرَّع غُصص الأسى، والعض على نقيف الحنظل أهون من رؤية ما يكره، فينقطع وكبده تتقطع.

ثم هَجْر القِلَى، وهنا ضلت الأساطير، ونفدت الحِيل، وعظم البلاء؛ وهو الذي خلَّى العقولَ ذواهلَ، فمن دُهي بهذه الداهية فليتصدَّ لمحبوب محبوبه، وليتعمَّد ما يعرف أنه يستحسنه، ويجب أن يجتنب ما يدري أنه يكرهه، فربما عطَّفه ذلك عليه إن كان المحبوب ممن يدري قدر الموافقة والرغبة فيه، وأما من لم يعلم قدر هذا فلا طَمع في استصرافه، بل حسناتك عنده ذنوب؛ فإن لم يقدر المرء على استصرافه؛ فليتعمَّد السُّلوان، وليحاسب نفسه بما هو فيه من البلاء والحرمان، ويسعى في نيل رغبته على أي وجه أمكنه. ولقد رأيت مَن هذه صفته، وفي ذلك أقول:

مَا أَقْبَحَ الهَجْرَ بَعْدَ وَصْلٍ ... وَأَحْسَنَ الوَصْلَ بَعْدَ هَجْرِ
كَالوَفْرِ تَحْوِيهِ بَعْدَ فَقْرٍ ... وَالفَقْرِ يَأْتِيكَ بَعْدَ وَفْرِ

باب الوفاء

ومن حميد الغرائز وكريم الشِّيم وفاضل الأخلاق في الحُبِّ وغيرِه الوفاءُ، وإنه لمن أقوى الدلائل وأوضح البراهين على طِيب الأصل، وشَرف العُنصر، وهو يتفاضل بالتفاضل اللازم للمخلوقات.

وأول مراتب الوفاء أن يفيَ الإنسان لمن يفي له. وهذا فرض لازم، وحق واجب على المحب والمحبوب، لا يحول عنه إلا خبيث المحتد لا خَلاقَ له ولا خير عنده. ولولا أن رسالتنا هذه لم نقصد بها الكلام في أخلاق الإنسان وصفاته المطبوعة والتطبُّع بها، وما يزيد من المطبوع بالتطبع وما يضمحل من التطبُّع بعدم الطبع، لزدتُ في هذا المكان ما يجب أن يوضع في مثله، ولكنا إنما قصدنا التكلُّم فيما رغبته من أمر الحب فقط. وهذا أمر كان يطول جدًّا؛ إذ الكلام فيه يتفنن كثيرًا.

خبر

ومن أرفع ما شاهدته من الوفاء في هذا المعنى وأهوله شأنًا قصَّة رأيتها عِيانًا، وهو أني أعرف مَن رَضِي بقطيعة محبوبه وأعزِّ الناس عليه، ومن كان الموت عنده أحلى من هجر ساعة في جَنب طيِّه لسرٍّ أودعه، والتزم محبوبه يمينًا غليظةً ألَّا يكلمه أبدًا، ولا يكون بينهما خبرٌ أو يفضح إليه ذلك السر. على أن صاحب ذلك السرِّ كان غائبًا، فأبى من ذلك، وتمادى هو على كتمانه، والثاني على هجرانه إلى أن فرَّقت بينهما الأيام.

ثم مرتبة ثانية، وهو الوفاء لمن غَدر، وهي للمُحب دون المحبوب،

وليس للمحبوب ها هنا طريق ولا يلزمه ذلك، وهي خُطة لا يُطيقها إلا جَلْد قويٌّ واسع الصدر، حرُّ النفس، عظيم الحِلْم، جليل الصبر، حَصِيف العقل، ماجد الخُلُق، سالم النية. ومن قابل الغدر بمثله فليس بمُستأهل للملامة، ولكن الحال التي قدمنا تفوقها جدًّا وتفوتها بُعدًا. وغاية الوفاء في هذه الحال تركُ مكافأة الأذى بمثله، والكف عن سيئ المعارضة بالفعل والقول، والتأني في جرِّ حَبل الصحبة ما أمكن، ورُجيت الألفة، وطُمع في الرجعة، ولاحت للعودة أدنى مخيلة، وشيمت منها أقل بارقة، أو توجس منها أيسر علامة.

فإذا وقع اليأس واستحكم الغيظ حينئذٍ والسلامة من غرك، والأمن من ضرك، والنجاة من أذاك، وأن يكون ذكر ما سلف مانعًا من شفاء الغيظ فيما وقع، فرَعْي الأذمة حق وَكِيد على أهل العقول، والحنين إلى ما مضى، وألا ينسى ما قد فرغ منه وفنيت مدته أثبت الدلائل على صحة الوفاء.

وهذه الصفة حسنة جدًّا، وواجب استعمالها في كل وجهٍ من وجوه معاملات الناس فيما بينهم على أي حالٍ كانت.

خبر

وكان لي مرةً صديق، ففسدت نيَّتُه بعد وَكِيد مودة لا يُكفر بمثلها، وكان علم كل واحد منا سرَّ صاحبه، وسقطت المئونة، فلما تغير عليَّ أفشى كل ما اطَّلع لي عليه مما كنت اطلعت منه على أضعافه، ثم اتَّصل به أن قوله فيَّ قد بلغني؛ فجزع لذلك وخشي أن أُقارضه على قبيح فعلته، وبلغني ذلك فكتبتُ إليه شعرًا أؤنسه فيه وأعلمه أني لا أقارضه.

خبر

ومما يدخل في هذا الدرج، وإن كان ليس منه ولا هذا الفصل المتقدم من جنس الرسالة والباب، ولكنه شبيه له على ما قد ذكرنا وشرطنا، وذلك أن مُحَمَّد بن وليد بن مكسير الكاتب كان مُتصلًا بي ومُنقطعًا إليَّ أيام وزارة أبي رحمة الله عليه فلما وقع بقُرطبة ما وقع وتغيرت أحوالٌ خرج إلى بعض النواحي فاتَّصل بصاحبها، فعرض جاهُه وحدثت له وَجاهة وحالٌ حسنة، فحللتُ أنا تلك الناحية في بعض رحلتي فلم يُوَفِّني حقي، بل ثَقُل عليه مكاني وأساء معاملتي وصُحْبتي، وكلَّفته في خلال ذلك حاجةً لم يقُم فيها ولا قعَد، واشتغل عنها بما ليس في مثله شُغل، فكتبتُ إليه شعرًا أعاتبه فيه، فجاوبني مستعتبًا على ذلك، فما كلَّفته حاجةً بعدها.

ثم مَرتبة ثالثة؛ وهي الوفاء مع اليأس الباتِّ، وبعد حلول المنايا وفجاءات المنون. وإن الوفاء في هذه الحالة لأجلُّ وأحسن منه في الحياة، ومع رجاء اللقاء.

خبر

ولقد حدَّثتني امرأة أثق بها أنها رأت في دار مُحَمَّد بن أحمد بن وهب، المعروف بابن الركيزة، من وَلد بدر الداخل مع الإمام عبد الرحمن بن معاويةجاريةً رائعةً جميلةً كان لها مولًى فجاءته المنيَّة، فبيعت في تركته، فأبت أن ترضى بالرجال بعده، وما جامَعها رجل إلى أن لقيت الله عز وجل، وكانت تُحسنُ الغناء فأنكرت علمَها به، ورضيت بالخدمة والخروج عن جملة المتخذات للنَّسل واللذة والحال الحسنة وفاءً منها لمن دثر ووارته الأرض

والْتأمت عليه الصفائح. ولقد رامها سيدُها المذكورُ أن يضمَّها إلى فراشه مع سائر جواريه ويُخرجها مما هي فيه فأبتْ، فضربها غير مرةٍ وأوقع بها الأدب، فصبرت على ذلك كله، فأقامت على امتناعها. وإن هذا من الوفاء غريب جدًّا.

واعلم أن الوفاء على المحب أوجب منه على المحبوب، وشرطه له ألزم؛ لأن المحب هو البادي باللُّصوق والتعرُّض لعقد الأذمة، والقاصد لتأكيد المودة، والمستدعي صحة العشرة، والأول في عدد طلاب الأصفياء، والسابق في ابتغاء اللذة باكتساب الخلة، والمقيد نفسه بزمام المحبة قد عقلها بأوثق عقال، وخطمها بأشد خطام، فمن قسره على هذا كله إن لم يُرد إتمامه؟ ومن أجبره على استجلاب المِقة إن لم يَنْوِ ختمها بالوفاء لمن أراده عليها؟ والمحبوب إنما هو مجلوب إليه، ومقصود نحوه، ومُخيَّر في القبول أو الترك، فإن قبل فغاية الرجاء، وإن أبى فغير مستحقٍّ للذم.

وليس التعرُّض للوصل والإلحاح فيه والتأني لكل ما يُستجلب به من الموافقة وتصفية الحضرة والمغيب من الوفاء في شيء؛ فحظ نفسه أراد الطالب، وفي سُروره سَعى، وله احتطب، والحب يدعوه ويَحْدوه على ذلك شاء أو أبَى، وإنما يُحمد الوفاء ممن يقدر على تركه.

وللوفاء شُروط على المحبين لازمة؛ فأولها أن يحفظ عهدَ محبوبه ويرعى غيبته، وتستوي علانيته وسريرته، ويطوي شره وينشر خيره، ويغطي على عيوبه، ويحسن أفعاله، ويتغافل عما يقع منه على سبيل الهفوة، ويرضى بما حمله، ولا يكثر عليه بما ينفر منه، وألا يكون طُلعةً ثئوبًا ولا مَلَّةً طَروقًا. وعلى المحبوب إن

ساواه في المحبَّة مثلُ ذلك، وإن كان دونه فيها فليس للمحب أن يكلفه الصعود إلى مرتبته، ولا له الاستشاطة عليه بأن يسومه الاستواء معه في درجته، وبحسبه منه حينئذٍ كتمان خبره، وألا يقابله بما يكره ولا يُخيفه به، وإن كانت الثالثة؛ وهي السلامة مما يلقى بالجملة، فَلْيَقنع بما وجد، وليأخذ من الأمر ما استدف، ولا يطلب شرطًا ولا يقترح حقًّا، وإنما له ما سنح بجده أو ما حان بكده. واعلم أنه لا يستبين قُبح الفعل لأهله؛ ولذلك يتضاعف قُبحه عند من ليس من ذويه، ولا أقول قولي هذا مُمتدحًا، ولكن آخذًا بأدب الله عز وجل: وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ.

لقد مَنحني الله عز وجل من الوفاء لكُل من يَمُتُّ إليَّ بلقية واحدة، ووهبني من المحافظة لمن يتذمَّم مني ولو بمُحادثته ساعة حظًّا، أنا له شاكر وحامد، ومنه مُستمد ومستزيد. وما شيء أثقل عليَّ من الغدر، ولعمري ما سمحت نفسي قط في الفِكرة في إضرار مَن بيني وبينه أقل ذمام، وإن عظمت جريرته، وكثرت إليَّ ذنوبه. ولقد دهمني من هذا غيرُ قليل، فما جزيت على السُّوأَى إلا بالحُسنى، والحمد لله على ذلك كثيرًا.

وبالوفاء أيضًا أفتخر في قصيدة لي طويلة أوردتها، وإن كان أكثرها ليس من جنس الكتاب، فكان سبب قولي لها أن قومًا من مُخالفيَّ شرقوا بي فأساءوا العتب في وجهي، وقذفوني بأني أعضدُ الباطل بحُجتي، عجزًا منهم عن مُقاومة ما أوردته من نَصر الحق وأهله، وحسدًا لي، فقلت وخاطبت بقصيدتي بعض إخواني، وكان ذا فهم.

باب الغدر

وكما أنَّ الوفاء من سريِّ النعوت ونَبيل الصفات، فكذلك الغدر من ذَميمها ومكروهها، وإنما يُسمى غدرًا من البادي. وأما المُقارض بالغدر على مثله، وإن استوى معه في حقيقة الفعل، فليس بغدرٍ ولا هو مَعيبًا بذلك، والله عز وجل يقول: وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا. وقد علمنا أنَّ الثانية ليست بسيِّئة، ولكن لما جانست الأولى في الشبه أُوقع عليها مثل اسمها. وسيأتي هذا مفسَّرًا في باب السلو إن شاء الله. ولكثرة وجود الغدر في المحبوب استُغرب الوفاء منه، فصار قليله الواقع منهم يقاوم الكثيرَ الموجود في سواهم.

ومن قبيح الغدر أن يكون للمحب سفير إلى محبوبه يستريح إليه بأسراره، فيسعى حتى يقلبه إلى نفسه ويستأثر به دونه.

خبر

ولقد حدَّثني القاضي يونس بن عبد الله قال: أذكر في الصِّبَا جاريةً في بعض السدد يَهواها فتًى من أهل الأدب من أبناء الملوك وتَهواه ويَتراسلان، وكان السفير بينهما والرسول بكتبهما فتًى من أترابه كان يصل إليها، فلما عُرضت الجارية للبيع أراد الذي كان يُحبها ابتياعها، فبدر الذي كان رسولًا فاشتراها، فدخل عليها يومًا فوجدها قد فتحت دُرجًا لها تطلب فيه بعض حوائجها، فأتى إليها وجعل يُفتِّش الدرج، فخرج إليه كتاب من ذلك الفتى الذي كان يَهواها مُضمَّخًا بالغالية مَصونًا مُكرمًا، فغضب وقال: من أين

هذا يا فاسقة؟ قالت: أنت سُقتَه إليَّ. فقال: لعله مُحدَث بعد ذاك الحين. فقالت: ما هو إلا من قديم تلك التي تعرف. قال: فكأنما ألقمتْه حجرًا، فسُقِط في يديه وسكت.

باب البَيْن

وقد علمنا أنه لا بد لكل مُجتمِع من افتراق، ولكل دانٍ من تَناء، وتلك عادة الله في العباد والبلاد حتى يرث الله الأرض ومَن عليها وهو خير الوارثين، وما شيء من دواهي الدنيا يَعدل الافتراق، ولو سالت الأرواحُ به فضلًا عن الدموع كان قليلًا. وسمع بعضُ الحكماء قائلًا يقول: الفِراق أخو الموت. فقال: بل الموت أخو الفراق.

والبين ينقسم أقسامًا؛ فأولها مُدة يُوقَن بانصرامِها وبالعودة عن قريب، وإنه لشَجًى في القلب، وغُصَّة في الحلق لا تبرأ إلا بالرَّجعة. وأنا أعلم من كان يَغيب من يُحب عن بصره يومًا واحدًا فيعتريه من الهلَع والجزَع وشُغل البال وتُرادُف الكُرَب ما يكاد يأتي عليه.

ثم بَيْنٌ مَنْعٌ من اللِّقاء، وتَحظيرٌ على المحبوب من أن يراه مُحبُّه، فهذا ولو كان مَن تُحبُّه معك في دارٍ واحدة فهو بَيْنٌ؛ لأنه بائنٌ عنك. وإن هذا ليولِّد من الحزن والأسفِ غير قليل، ولقد جرَّبناه فكان مُرًّا، وفي ذلك أقول:

أَرَى دَارَهَا فِي كُلِّ حِينٍ وَسَاعَةٍ ... وَلَكِنَّ مَنْ فِي الدَّارِ عَنِّي مُغَيَّبُ

وَهَلْ نَافِعِي قُرْبُ الدِّيَارِ وَأَهْلِهَا ... عَلَى وَصْلِهِمْ مِنِّي رَقِيبٌ مُرَاقِبُ

فَيَا لَك جار الجَنْبِ أَسمَعُ حِسَّهُ ... وَأَعْلَمُ أَنَّ الصِّينَ أَدْنَى وَأَقْرَبُ

كَصَادٍ يَرَى مَاءَ الطَّوِيِّ بِعَيْنِهِ ... وَلَيْسَ إِلَيْهِ مِنْ سَبِيلٍ يُسَبِّبُ

كَـذِلَكَ مَـنْ فِي اللَّحْـدِ عَنْـكَ مُغَيَّـبٌ وَمَـا دُونَـهُ إِلَّا الصَّـفِيحُ المُنَصَّـبُ

ثم بَيْنٌ يتعمَّده المحبُّ بُعْدًا عن قول الوُشاة، وخوفًا أن يكون بقاؤه سببًا إلى منع اللقاء، وذريعةً إلى أن يَفشوَ الكلام فَيقَع الحجابُ الغليظ.

ثم بَيْنٌ يولِّده المُحبُّ لبعض ما يدعوه إلى ذلك من آفات الزمان، وعُذره مقبول أو مُطرح على قدر الحافز له إلى الرحيل.

وإنَّ للأوبة من البَيْن الذي تُشفق منه النفس لِطُول مسافته، وتكاد تيأس من العودة فيه لروعةً تبلغ ما لا حدَّ وراءه، وربما قتلت. وفي ذلك أقول:

لِلتَّلَاقِـي بَعْـدَ الفِـرَاقِ سُـرُورٌ كَسُـرُورِ المُفِيـقِ حَانَـتْ وَفَاتُـهْ

فَرْحَـةٌ تُـبْهِجُ النُّفُـوسَ وَتُحْيِـي مَـنْ دَنَا مِنْـهُ بِالفِـرَاقِ مَمَاتُـه

وإني لأعلم مَن نأت دارُ محبوبه زمنًا ثم تيسَّرت له أوبة، فلم يكن إلا بقَدْر التسليم واستيفائه، حتى دعتْه نوًى ثانية فكاد أن يَهلِك. وفي ذلك أقول:

أَطَلْتُ زَمَانَ البُعْدِ حَتَّى إِذَا انْقَضَى زَمَانُ النَّوَى بِالقُرْبِ عُدْتَ إِلَى البُعْدِ

فَلَـمْ يَـكُ إِلَّا كَـرَّة الطَّـرْفِ قُـرْبَكُمْ وَعَـاوَدَكُمْ بَعْـدِي وَعَـاوَدَنِي وَجْـدِي

كَـذَا حَـائِرٌ فِي اللَّيْـلِ ضَـاقَتْ وُجُوهُـهُ رَأَى البَـرْقَ فِي دَاجٍ مِـنَ اللَّيْـلِ مُسْـوَدِّ

فَأَخلَفَـهُ مِنـهُ رَجـاءُ دَوامِـه وبَعـضُ الأَرَاجِـي لا تُفيـدُ ولا تُجـدِي

ويقع في هذين الصنفين من البَينِ الوداعُ؛ أعني رحِيلَ المُحب أو رحيل المحبوب. وإنه لمن المناظر الهائلة والمواقف الصعبة التي تَفتضح فيها عزيمة

كل ماضي العزائم، وتذهب قوة كل ذي بصيرة، وتَسكب كلُّ عينٍ جمود، ويَظهر مكنون الجوى.

وهو فصل من فصول البَيْن يجب التكلُّم فيه، كالعتاب في باب الهجر. ولعمري لو أن ظريفًا يموت في ساعة الوداع لكان معذورًا إذا تفكَّر فيما يَحُلُّ به بعد ساعة من انقطاع الآمال، وحلول الأوجال، وتبدُّل السرور بالحزن. وإنها ساعة تُرِقُّ القلوب القاسية، وتُلين الأفئدة الغلاظ. وإن حركة الرأس وإدمان النظر والزَّفرة بعد الوداع لهاتكةٌ حجابَ القلب، ومُوصلة إليه من الجزع بمقدار ما تفعل حركةُ الوجه في ضد هذا.

والإشارة بالعين والتبسُّم في مواطن المُوافقة والوداع ينقسم قسمين؛ أحدهما لا يتمكَّن فيه إلا بالنظر والإشارة، والثاني يتمكن فيه بالعناق والملازمة، وربما لعلَّه كان لا يُمكن قبل ذلك البتة مع تجاور المحال وإمكان التلاقي؛ ولهذا تمنَّى بعضُ الشعراء البَيْنَ ومدَحوا يوم النَّوَى، وما ذاك بحَسن ولا بصواب ولا بالأصيل من الرأي؛ فما يفي سرورُ ساعة بحزن ساعات، فكيف إذا كان البين أيامًا وشهورًا وربما أعوامًا!

وهذا سوء من النظر ومعْوجٌّ من القياس، وإنما أثنيتُ على النوى في شعري تمَنِّيًا لرجوع يومها، فيكون في كل يوم لقاء ووداع. على أن تَحمُّل مضض هذا الاسم الكريه، وذلك عندما يمضي من الأيام التي لا التقاء فيها، يرغِّب المحب عن يوم الفراق لو أمكنه في كل يوم.

وهل هجس في الأفكار أو قام في الظنون أشنعُ وأوجع من هَجر عِتاب وقع بين مُحبَّين، ثم فجأتْهما النوى قبل حلول الصُّلح وانحلال عُقدة

الهجران، فقاما إلى الوداع وقد نُسي العِتاب، وجاء ما طَمَّ على القُوى وأطار الكرى.

وأعرف من أتى ليُودِّع محبوبَه يوم الفِراق فوجده قد فات، فوقف على آثاره ساعةً وتردَّد في الموضع الذي كان فيه ثم انصرف كئيبًا متغيِّر اللون كاسف البال، فما كان بعد أيام قلائل حتى اعتلَّ ومات رحمه الله.

وإن للبين في إظهار السرائر المطوية عملًا عجبًا، ولقد رأيتُ من كان حبُّه مكتومًا، وبما يَجِد فيه مستترًا حتى وقع حادث الفراق فباح المكنون وظهر الخفي. ولقد أذكرني هذا أني حَظيتُ في بعض الأزمان بمودة رجل من وزراء السلطان أيام جاهه، فأظهر بعض الامتساك، فتركته حتى ذهبت أيامه وانقضت دولته، فأبدى لي من المودة والأُخوَّة غير قليل.

ثم بَيْنُ الموت؛ وهو الفوت، وهو الذي لا يُرجى له إياب، وهو المصيبة الحالَّة، وهو قاصمة الظهر، وداهية الدهر، وهو الويل، وهو المُغَطِّي على ظلمة الليل، وهو قاطع كل رجاء، وماحي كل طمع، والمؤيس من اللقاء. وهنا حادت الألسن، وانجذم حبل العلاج، فلا حيلة إلا الصبر طوعًا أو كرهًا. وهو أجلُّ ما يُبتلى به المحبون، فما لمن دُهي به إلا النوح والبكاء إلى أن يتلَف أو يَمَلَّ، فهي القرحة التي لا تُنكى، والوجع الذي لا يفنى، وهو الغمُّ الذي يتجدَّد على قدر بلاء من اعتمدته، وقد رأينا مَن عَرض له هذا كثيرًا، وعنِّي أخبرك أني أحدُ من دُهي بهذه الفادحة، وتعجَّلت له هذه المصيبة، وذلك أني كنتُ أشدَّ الناس كلفًا وأعظمهم حُبًّا بجاريةٍ لي، كانت فيما خلا اسمها نُعْم، وكانت أمنيةَ المتمنِّي وغايةَ الحسن

خَلْقًا وخُلُقًا ومُوافَقةً لي، وكنت أنا عذرها، وكنا قد تكافأنا المودة، ففجعتْني بها الأقدار، واخترمتها الليالي ومرُّ النهار، وصارت ثالثةَ التراب والأحجار، وسنّي حين وفاتها دون العشرين سنة، وكانت هي دوني في السن، فلقد أقمتُ بعدها سبعةَ أشهر لا أتجرَّد عن ثيابي، ولا تَفتر لي دمعة على جُمود عيني وقلة إسعادها.

وعلى ذلك فوالله ما سلوتُ حتى الآن، ولو قُبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف، وببعض أعضاء جسمي العزيزة عليَّ مسارعًا طائعًا، وما طاب لي عيش بعدها، ولا نسيتُ ذِكرها، ولا أنِسْتُ بسواها. ولقد عَفَّى حُبي لها على كل ما قبله، وحرَّم ما كان بعده.

واختلف الناسُ في أي الأمرين أشد؛ البينُ أم الهجر؟ وكلاهما مُرتقًى صعبٌ، وموت أحمر، وبليَّة سوداء، وسنة شَهباء. وكُلٌّ يَستبشع من هذين ما ضادَّ طبعه، فأما ذو النفس الأبية الألوف الحنانة، الثابتة على العهد، فلا شيء يعدل عنده مُصيبة البَين؛ لأنه أتى قصدًا، وتعمدتْه النوائب عمدًا، فلا يجد شيئًا يُسلِّي نفسه ولا يصرف فكرته في معنًى من المعاني إلا وجد باعثًا على صبابته، ومحركًا لأشجانه، وعليه لا له، وحجَّة لوجده، وحاضًّا على البكاء على إلفه. وأما الهجر فهو داعية السلو، ورائد الإقلاع.

وأما ذو النفس التوَّاقة الكثيرة النزوع والتطلع، القلوق العزوف، فالهجر داؤه، وجالبُ حتفه، والبَين له مَسلاة ومنساة.

وأما أنا فالموت عندي أسهل من الفراق، وما الهجر إلا جالب للكمد

فقط، ويوشك إن دام أن يُحدث إضرارًا، وفي ذلك أقول:

وَقــالُوا ارْتَحِــلْ، فَلَعَــلَّ السُّــلُوَّ يَكُــــونُ وَتَرْغَـــبُ أَنْ تَرْغَبَـــهْ

فَقُلْــتُ الــرَّدَى لِيَ قَبْــلَ السُّــلُوِّ وَمَــنْ يَشْــرَب السُّــمَّ عَــنْ تَجْرِبَــهْ

ولقد رأيت مَن يستعمل هجر محبوبه ويتعمده خوفًا من مرارة يوم البَيْن وما يَحدُث به من لوعة الأسف عند التفرُّق. وهذا وإن لم يكن عندي من المذاهب المرضية، فهو حجة قاطعة على أن البين أصعب من الهجر، وكيف لا وفي الناس من يلوذ بالهجر خوفًا من البين! ولم أجد أحدًا في الدنيا يلوذ بالبين خوفًا من الهجر، وإنما يأخذ الناسُ أبدًا الأسهل ويتكلَّفون الأهون. وإنما قلنا إنه ليس من المذاهب المحمودة لأن أصحابه قد استعجلوا البلاء قبل نزوله، وتجرعوا غصة الصبر قبل وقتها، ولعل ما تخوَّفوه لا يكون، وليس من يتعجل المكروه، وهو على غير يقين مما يتعجل، بحكيم.

والبَيْن أبكى الشعراء على المعاهد، فأدرُّوا على الرسوم الدموع، وسقوا الديار ماء الشوق، وتذكروا ما قد سلف لهم فيها فأعولوا وانتحبوا، وأحيت الآثار دفين شوقهم فناحُوا وبكَوْا.

ولقد أخبرني بعضُ الورَّاد من قرطبة، وقد استخبرتُه عنها، أنه رأى دورنا ببلاط مُغيث، في الجانب الغربي منها، وقد امَّحت رسومها، وطُمست أعلامها، وخفيت معاهدها، وغيَّرها البلى، وصارت صحاريَ مجدبة بعد العمران، وفيافيَ مُوحشة بعد الأنس، وخرائبَ مُنقطعة بعد الحُسن، وشِعابًا مُفزِّعة بعد الأمن، ومأوًى للذئاب، ومعازفَ للغِيلان، وملاعبَ للجان،

ومكامنَ للوحوش، بعد رجال كالليوث، وخرائدَ كالدُّمى تفيض لديهم النِّعَم الفاشية. تبدَّد شملهم فصاروا في البلاد أياديَ سبأ، فكأن تلك المحاريب المنمَّقة، والمقاصير المزينة، التي كانت تُشرق إشراق الشمس، ويجلو الهموم حسن منظرها، حين شَمِلها الخرابُ وعمَّها الهَدْم كأفواه السباع فاغرة، تُؤذن بفناء الدنيا، وتُريك عواقب أهلها، وتُخبرك عمَّا يصير إليه كل من تراه قائمًا فيها، وتَزهد في طلبها بعد أن طالما زهدت في تركها.

وتذكرت أيامي بها ولَذَّاتي فيها، وشُهور صبايَ لديها، مع كواعب إلى مثلهن صبا الحليم، ومثَّلت لنفسي كَونهن تحت الثرى، وفي الآثار النائية، والنواحي البعيدة، وقد فرَّقتهن يدُ الجلاء، ومزقتهن أكفُّ النوى، وخُيل إلى بَصري بقاء تلك النصبة بعدما علمتُهُ من حسنها وغضارتها، والمراتب المحكمة التي نشأت فيها لديها، وخلاء تلك الأفنية بعد تضايقها بأهلها، وأوهمتُ سمعي صوتَ الصدى والهام عليها، بعد حركة تلك الجماعات التي رُبِّيت بينهم فيها، وكان ليلها تبعًا لنهارها في انتشار ساكنها، والتقاء عمارها، فعاد نهارُها تبعًا لليلها في الهدوء والاستيحاش، فأبكى عيني، وأوجع قلبي، وقرع صفاة كبدي، وزاد في بلاء لُبي، فقلت شعرًا، منه:

لَئِنْ كَانَ أَظْمَانَا فَقَدْ طَالَمَا سَقَى ... وَإِنْ سَاءَنَا فِيهَا فَقَدْ طَالَمَا سَرَّا

والبَيْنُ يَوَلِّد الحنين والاهتياج والتذكُّر.

باب القنوع

ولا بد للمُحب، إذا حُرم الوصل، من القنوع بما يجد، وإن في ذلك لمتعللًا للنفس، وشغلًا للرجَاء، وتجديدًا للمُنى، وبعضَ الراحة. وهو مراتب على قدر الإصابة والتمكُّن؛ فأولها الزيارة، وإنها لأمل من الآمال، ومِن سريٍّ ما يَسنح في الدهر مع ما تبدَّى من الخَفَر والحياء؛ لما يعلمه كل واحدٍ منهما مما في نفس صاحبه. وهي على وجهين؛ أحدهما أن يزور المحب محبوبه، وهذا الوجه واسع، والوجه الثاني أن يزور المحبوبُ مُحبَّه، ولكن لا سبيل إلى غير النظر والحديث الظاهر. وفي ذلك أقول:

فَـإِنْ تَنْـأَ عـنِّي بِالوِصَـالِ فَـإِنَّنِي سَأَرْضَـى ... بِلَحْـــظِ العَـــيْنِ إِنْ لَمْ يَكُـــنْ وَصْـــلُ
فَحَسْـــبِيَ أَنْ أَلْقَـــاكَ فِي اليَـــوْمِ مَـــرَّةً ... وَمَـا كُنْـتُ أَرْضَـى ضِـعْفَ ذَا مِنْـكَ لِي قَبْـلُ

وأما رَجع السلام والمخاطبة فأمل من الآمال، فإنما هذا لمن ينتقل من مَرتبة إلى ما هو أدنى منها، وإنما يتفاضل المخلوقات في جميع الأوصاف على قدر إضافتها إلى ما هو فوقها أو دونها. وأني لأعلم مَن كان يقول لمحبوبه: عِدني واكذب. قُنوعًا بأن يُسلِّيَ نفسه في وعده وإن كان غيرَ صادق، ومما يدخل في هذا الباب شيءٌ رأيته ورآه غيري معي، أن رجلًا من إخواني جَرحه من كان يُحبه بمُدية، فلقد رأيته وهو يُقبِّل مكان الجُرح ويندُبه مرة بعد مرة.

ومن القنوع أن يُسر الإنسان ويَرضى ببعض آلات محبوبه، وإنَّ له من

النفس لموقعًا حَسنًا وإن لم يكن فيه إلا ما نَص الله تعالى علينا، من ارتداد يعقوب بصيرًا حين شَم قميص يوسف عليهما السلام.

وما رأيتُ قط متعاشقَين إلَّا وهما يتهاديان خُصل الشعر مُبخَّرةً بالعنبر، مرشوشةً بماء الورد، وقد جُمعت في أصلها بالمُصْطكي وبالشمع الأبيض المصفَّى، ولُفَّت في تطاريف الوشي والخز وما أشبه ذلك؛ لتكون تذكرةً عند البين.

وللشعراء في علَّة مَزار الطيف أقاويل بديعة بعيدة المرمى، مُخترعة، كلٌّ سبق إلى معنًى من المعاني؛ فأبو إسحاق بن سيَّار النظَّام، رأس المُعتزلة، جعل علة مزار الطَّيف خوفَ الأرواح من الرقيب المرقَّب على بهاء الأبدان، وأبو تمام جعل علَّته أن نِكاح الطيف لا يُفسد الحُبَّ، ونِكاحَ الحقيقة يفسده، والبُحتري جعل علَّة إقباله استضاءته بنار وَجده، وعلَّة زواله خوف الغرق في دموعه، وأنا أقول من غير أن أمثل شعري بأشعارهم فلهم فضل التقدم والسابقة، وإنما نحن لاقطون وهم الحاصدون، ولكن اقتداءً بهم، وجريًا في ميدانهم، وتتبعًا لطريقتهم التي نهجوا وأوضحوا أبياتًا بيَّنت فيها مزارَ الطيف مقطَّعةً:

أَغَـارُ عَلَيْـكِ مِـنْ إِدْرَاكِ طَـرْفِي ... وَأُشْـفِقُ أَنْ يُـذِيبَكِ لَمْـسُ كَفِّـي
فَـأَمْتَنِعُ اللِّقَـاءَ حِـذَارَ هَـذَا ... وَأَعْتَمِـدُ التَّلَاقِـيَ حِـينَ أُغْفِـي
فَرُوحِـي إِنْ أَنَمْ بِـكِ ذُو انْفِـرَادٍ ... مِـنَ الأَعْضَـاءِ مُسْـتَتِرٌ وَمَخْفِـي
وَوَصْـلُ الـرُّوحِ أَلْطَـفُ فِيـكِ وَقْعًـا ... مِـنَ الجِسْـمِ المُوَاصِـلِ أَلْـفَ ضِـعْف

وحال المَزور في المنام ينقسم أقسامًا أربعةً؛ أحدها مُحب مهجور قد تطاول غمُّه، ثم رَأى في هجعته أنَّ حبيبه وَصله فسُرَّ بذلك وابتهج، ثم استيقظ فأسِف وتلهَّف، حيث علم أن ما كان فيه أمانيّ النفس وحديثها.

والثاني مُحبٌّ مواصل مُشفق من تغيُّرٍ يقع، قد رأى في وَسَنه أن حبيبه يهجره؛ فاهتم لذلك همًّا شديدًا، ثم هبَّ من نومه فعلم أن ذلك باطل وبعض وساوس الإشفاق.

والثالث مُحب داني الديار يرى أن التنائيَ قد فدَحه، فيكترث ويَوْجَل، ثم ينتبه فيذهب ما به ويعود فَرِحًا.

والرابع مُحب نائي المزار، يرى أنَّ المزار قد دنا، والمنازل قد تَصاقَبتْ، فيرتاح ويأنس إلى فقد الأسى، ثم يقوم من سِنته فيرى أن ذلك غيرُ صحيح، فيعود إلى أشد ما كان فيه من الغم.

ومن القُنوع أن يَقنع المُحب بالنظر إلى الجدران ورُؤية الحيطان التي تحتوي على من يُحب، وقد رأينا مَن هذه صفتُه. ولقد حدثني أبو الوليد أحمد بن مُحَمَّد بن إسحاق الخازن عن رجل جليل أنه حدث عن نفسه بمثل هذا.

ومن القنوع أن يرتاح المُحب إلى أن يرى مَن رأى محبوبه، ويأنس به ومَن أتَى من بلاده.

ومما يدخل في هذا الباب أبياتٌ لي مُوجبُها أني تنزَّهت أنا وجماعة من إخواني من أهل الأدب والشرف إلى بستانٍ لرجلٍ من أصحابنا، فجُلْنا ساعةً ثم أفضى بنا القُعود إلى مكانٍ دونه يُتمنَّى، فتمددنا في رياضٍ أريضة،

وأرضٍ عريضة، للبصر فيها مُنفسح، وللنفس لديها مسرح، بين جَداول تطَّرد كأباريق اللجين، وأطيارٍ تُغرِّد بألحان تزري بما أبدعه معبد والغريض، وثمار مهدَّلة قد ذُللت للأيدي، ودنتْ للمتناول، وظلالٍ مُظلَّة تُلاحظنا الشمس من بينها فتتصوَّر بين أيدينا كرقاع الشطرنج والثياب المدبَّجة، وماءٍ عَذْب يوجدك حقيقة طعم الحياة، وأنهارٍ متدفقة تَنساب كبُطون الحيات لها خرير يقوم ويَهدأ، ونَواوير مُونِقة مختلفة الألوان تُصفِّقُها الرياح الطيبة النسيم، وهواء سَجْسَج، وأخلاق جُلَّاسٍ تفوق كل هذا، في يومٍ ربيعيٍّ ذي شَمس ظليلة، تارة يُغطيها الغيمُ الرقيق والمُزن اللطيف، وتارةً تتجلَّى، فهي كالعذراء الخَفِرة، والخَريدة الخجلة تتراءى لعاشقها من بين الأستار ثم تغيب فيها، حَذَرَ عَينٍ مراقِبة.

وللشعراء فَنٌّ من القُنوع أرادوا فيه إظهارَ غرضهم وإبانة اقتدارهم على المعاني الغامضة والمَرامي البعيدة، وكلٌّ قال على قدر قوة طبعه، إلا أنه تحكَّم باللسان، وتشدَّق في الكلام، واستطال بالبيان، وهو غير صحيح في الأصل. فمنهم من قنع بأن السماء تُظله هو ومحبوبه والأرض تقلُّهما، ومنهم من قَنع باستوائهما في إحاطة الليل والنهار بهما، وأشباه هذا. وكلٌّ مُبادرٌ إلى احتواء الغاية في الاستقصاء، وإحراز قَصَب السَّبْق في التدقيق.

ومن القنوع فصلٌ أُوردُه، وأستعيذُ بالله منه ومن أهله، وأحمَدُه على ما عَرَّف نفوسنا من منافرته؛ وهو أن يضل العقلُ جُملة، ويُفْسِد القريحة، ويُتلف التمييز، ويهون الصعب، ويُذهب الغَيرة، ويُعدم الأنفة، فيرضى الإنسان بالمشاركة فيمن يحب.

وقد عرَض هذا لقوم أعاذنا الله من البلاء وهذا لا يصح إلا مع كلبيَّة في الطبع، وسُقوط من العقل الذي هو عَيَّار على ما تحته، وضعف حسٍّ، ويؤيد هذا كله حُبٌّ شديد مُعْمٍ، فإذا اجتمعت هذه الأشياء وتلاحقت بمزاج الطبائع ودُخول بعضها في بعض، نتج بينهما هذا الطبع الخسيس، وتولدت هذه الصفة الرذلة، وقام منها هذا الفعل المقذور القبيح، وأما رجلٌ معه أقل همة وأيسر مروءة فهذا منه أبعدُ من الثريَّا، ولو مات وجدًا وتقطع حُبًّا.

باب الضنى

ولا بد لكل مُحب صادق المودَّة ممنوع الوصل، إمَّا بِبَيْن وإمَّا بهَجر وإما بكتمان واقعٍ لمعنًى، من أن يئول إلى حد السقام والضنى والنُّحول، وربما أضجعه ذلك. وهذا الأمر كثير جدًّا موجود أبدًا. والأعراض الواقعة من المَحبة غير العلل الواقعة من هَجمات العِلل، ويميزها الطبيبُ الحاذق والمتفرِّس الناقد. وفي ذلك أقول:

يقــول لي الطبيــب بغــير علــمٍ ... تــداوَ فأنــت يا هــذا عليــلُ
ودائــي لــيس يدريــه سِــوائي ... وربٌّ قــادرٌ ملِــكٌ جليــلُ
أأكتُمُــهُ ويكشِــفُهُ شــهيقٌ ... يلازمــني وإطــراقٌ طويــلُ
ووجــهٌ شــاهداتُ الحُــزنِ فيــه ... وجســمٌ كالخيــالِ ضَــنٍ نَحيــلُ
وأثبــتُ مــا يكــونُ الأمــرُ يومــا ... بــلا شــكٍّ إذا صَــحَّ الــدليلُ
فقلــت لــه أَبِــنْ عــنِّي قلــيلاً ... فــلا واللهِ تعــرفُ مــا تقــولُ
فقــالَ أرى نُحُــولاً زاد جــدَّاً ... وعلَّتُــك الــتي تشــكو ذُبُــولُ
فقلــت لــه الــذُّبُولُ تَعِــلُّ منــهُ ... الجــوارحُ وهــي حُمَّــى تســتحيلُ
ومــا أشــكو لعمــرُ اللهِ حمَّــى ... وإنَّ الحَــرَّ في جســمي قليــلُ
فقــال أرى التفــاتاً وارتقــاباً ... وأفكــاراً وصــمتاً لا يــزولُ

وأحسبُ أنَّها السوداءُ فانظرْ — لنفسك إنَّها عرضٌ ثقيلُ
فقلت له كلامُك ذا محالٌ — فما للدَّمع من عيني يسيلُ
فأطرقَ باهتاً ممَّا رآهُ — ألا في مثل ذا بهت النبيلُ
فقلت لهُ دوائي منهُ دائي — ألا في مثل ذا ضلَّت عقولُ
وشاهدُ ما أقولُ يُرى عياناً — فروعُ النَّبت إن عكستْ أصولُ
وترياقُ الأفاعي ليس شيءٌ — سِواهُ ببرءِ ما لدغتْ كفيلُ

وحدثني أبو بكر مُحَّد بن بقيٍّ الحجريُّ، وكان حكيم الطبع عاقلًا فهيمًا، عن رجل من شيوخنا لا يمكن ذكره، أنه كان ببغداد في خانٍ من خاناتها، فرأى ابنة لوكيلة الخان فأحبَّها وتزوَّجها، فلما خلا بها نظرتْ إليه وكانتْ بِكرًا، وهو قد تكشف لبعض حاجته، فراعَها كِبَرَ أيْرِه، ففرَّت إلى أمها وتفادت منه، فرام بها كل مَن حواليها أن تُردَّ إليه، فأبتْ وكادتْ أن تموت، ففارقها ثم ندم، ورام أن يُراجعها فلم يُمكنه، واستعان بالأبهري وغيره فلم يقدر أحد منهم على حيلة في أمره، فاختلط عقله وأقام في المارستان يُعاني مدةً طويلةً حتى نَقِه وسَلَا وما كاد، ولقد كان إذا ذكرها يتنفَّس الصُّعَداء.

خبر

وإني لأعرف جاريةً من ذوات المَناصب والجمال والشرف من بنات القوَّاد، وقد بلغ بها حُب فتًى من إخواني جدًّا، من أبناء الكُتَّاب، مبلغَ هيجان المرار الأسود، وكادت تختلط، واشتُهر الأمر وشاع جدًّا حتى

علمناه وعلمه الأباعد، إلى أن تُدورِكتْ بالعلاج. وهذا إنما يتولَّد عن إدمان الفكر، فإذا غلبت الفكرة وتمكن الخَلط التداوي خرج الأمر عن حدِّ الحُب إلى حد الوَلَهِ والجنون، وإذا أُغفل التداوي في الأول إلى المُعاناة قوي جدًّا ولم يوجد له دواء سوى الوصال.

باب السلو

وقد علمنا أن كلَّ ما له أول فلا بُد له من آخر، حاشا نَعيم الله عزَّ وجل، الجنة لأوليائه، وعذابه بالنار لأعدائه. وأما أعراض الدنيا فنافدة فانية، وزائلة مضمحلة، وعاقبة كل حُب إلى أحد أمرين؛ إمَّا اخترام منية، وإما سلوٍّ حادث. وقد نجد النفس تَغلب عليها بعضُ القُوى المصرِّفة معها في الجسد، فكما نجد نَفسًا ترفض الراحات والملاذَّ للعمل في طاعة الله تعالى وللرياء في الدنيا، حتى تُشتهر بالزهد، فكذلك نجد نفسًا تنصرف عن الرغبة في لقاء شكلها للأنفة المستحكمة المنافرة للغدر، أو استمرار سوء المكافأة في الضمير. وهذا أصح السلوِّ، وما كان من غير هذين الشيئين فليس إلا مذمومًا. والسلوُّ المتولِّد من الهجر وطوله إنما هو كاليأس يدخل على النفس من بُلوغها إلى أملها، فيفتر نزاعها ولا تقوى رغبتها. ولي في ذم السلو قصيدة، منها:

إِذَا مَـا رَنَـتْ فَـالحَيُّ مَيْـتٌ بِلَحْظِهَـا ... وَإِنْ نَطَقَـتْ قُلْـت السَّـلَامَ رِطَـاب

كَـأَنَّ الهَـوَى ضَـيْفٌ أَلَمَّ بِمُهْجَـتِي ... فَلَحْمِـي طَعَـامٌ وَالنَّجِيـعُ شَـرَاب

والسلو في التجربة الجميلة ينقسم قسمين: سلو طبيعي، وهو المسمى بالنسيان، يخلو به القلب، ويفَرغ به البال، ويكون الإنسان كأنه لم يحب قط. وهذا القسم ربما لحِق صاحبَه الذمُّ لأنه حادث عن أخلاق مذمومة، وعن أسباب غير مُوجبة استحقاق النسيان وستأتي مُبيَّنة إن شاء الله تعالى وربما لم تَلْحقه اللائمة لعذر صحيح.

والثاني سلو تطبُّعي، قهر النفس، وهو المسمى بالتصبُّر، فترى المرء يُظهر التجلُّد وفي قلبه أشد لدغًا من وخز الإشْفَى، ولكنه يرى بعضَ الشر أهونَ من بعض، أو يحاسب نفسه بحُجة لا تُصرف ولا تُكْسر. وهذا قسم لا يُذمُّ آتِيه، ولا يُلام فاعله؛ لأنه لا يحدُث إلا عن عظيمة، ولا يقع إلا عن فادحة؛ إما لسبب لا يَصبر على مثله الأحرار، وإما لخطب لا مردَّ له تجري به الأقدار. وكفاك من الموصوف به أنه ليس بناسٍ لكنه ذاكر، وذو حنين واقف على العهد، ومتجرِّع مرارات الصبر، والفرق العامي بين المتصبر والناسي أنك ترى المتصبر وإن أبدَى غاية الجَلَد، وأظهر سَبَّ محبوبه والتحمُّل عليه، يَحتمِلُ ذلك من غيره.

والناسي ضدُّ هذا، وكلُّ هذا فعلى قدر طبيعة الإنسان وإجابتها وامتناعها، وقُوة تمكُّن الحب من القلب أو ضعفه، والأسباب الموجبة للسلو المنقسم هذين القسمين كثيرة، وعلى حسبها وبمقدار الواقع منها يُعذر السالي ويُذم.

فمنها المَلل، وقد قدَّمنا الكلام عليه، وإن من كان سُلوُّه عن مَلل فليس حُبُّه حقيقة، والمُتَّسم به صاحبُ دعوى زائفة، وإنما هو طالب لذَّة ومُبادر شهوة. والسالي من هذا الوجه ناسٍ مذموم.

ومنها الاستبدال، وهو وإن كان يُشبه الملل ففيه معنًى زائدٌ، وهو بذلك المعنى أقبح من الأول، وصاحبه أحقُّ بالذم.

ومنها حَياء مركَّب يكون في المُحبِّ يَحولُ بينه وبين التعريض بما يجد، فيتطاول الأمر، وتتراخى المدة، ويبلى جديد المودة، ويحدُث السلو.

وهذا وجه إن كان السالي عنه ناسيًا فليس بمُنصفٍ؛ إذ منه جاء سببُ الحرمان، وإن كان متصبرًا فليس بملوم؛ إذ آثر الحياء على لذة نفسه. وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الحَياء من الإيمان، والبذاء من النفاق.»

فهذه الأسباب الثلاثة أصلها من المُحب، وابتداؤها من قِبَله، والذم لاصق به في نسيانه لمن يُحب.

ثم منها أسباب أربعة هُن من قِبل المحبوب، وأصلها عنده، فمنها: الهجر، وقد مرَّ تفسير وجوهه، ولا بد لنا أن نورد منه شيئًا في هذا الباب يوافقه، والهجر إذا تطاول وكثُر العتاب واتصلت المفارقة يكون بابًا إلى السلو.

وليس مَن وصلك ثم قَطعك لغيرك من باب الهَجر في شيء؛ لأنه الغدر الصحيح، ولا مَن مَال إلى غيرك دون أن يتقدَّم لك معه صِلةٌ من الهَجر أيضًا في شيء، إنما ذاك هو النِّفار لكن الهجر ممن وَصَلك ثم قطَعك لتنقيل واشٍ، أو لذنب واقع، أو لشيء قام في النفس، ولم يَمِل إلى سواك، ولا أقام أحدًا غيرك مقامك. والناسي في هذا الفصل من المُحبين ملوم دون سائر الأسباب الواقعة من المحبوب؛ لأنه لا تقع حالة تُقيم العذر في نسيانه، وإنما هو راغب عن وَصلك، وهو شيء لا يلزمه.

وقد تقدم من أذمَّة الوصال وحق أيامه ما يلزم التذكر، ويوجب عهد الألفة، ولكن الساليَ على جهة التصبر والتجلُّد ها هنا معذور، إذا رأى الهجر متماديًا، ولم يرَ للوصال علامة، ولا للمراجعة دلالة.

وقد استجاز كثير من الناس أن يُسمُّوا هذا المعنى عذرًا؛ إذ ظاهرهما واحد، ولكن علَّتيهما مختلفتان؛ فلذلك فرَّقنا بينهما في الحقيقة.

ثم الأسباب الثلاثة الباقية التي هي من قِبَل المحبوب، فالمتصبر من الناس فيها غير مذموم؛ لما سنُورده – إن شاء الله – في كل فصلٍ منها.

فمنها نِفارٌ يكون في المحبوب وانزواء قاطع للأطماع.

خبر

وإني لأخبر عنِّي أني ألفت في أيام صباي ألفةَ المحبة جاريةً نشأت في دارنا، وكانت في ذلك الوقت بنتَ ستة عشرَ عامًا، وكانت غايةً في حُسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخَفَرها ودَماثتها، عديمة الهزل، منيعة البَذل، بديعة البِشْر، مُسْبلة الستر؛ فقيدةَ الذام، قليلة الكلام، مغضوضة البصر، شديدة الحذر، نقية من العيوب، دائمة القطوب، حلوة الإعراض، مطبوعة الانقباض، مليحة الصدود، رزينة العقود، كثيرة الوقار، مستلذة النفار، لا توجه الأراجي نحوها، ولا تقف المطامِع عليها، ولا معرس للأمل لديها، فوجهها جالبٌ كل القلوب، وحالُها طارد مَن أمَّها، تزدان في المنع والبخل ما لا يزدان غيرها بالسماحة والبذل، موقوفة على الجد في أمرها، غير راغبة في اللهو، على أنها كانت تحسن العود إحسانًا جيدًا.

فجنحتُ إليها وأحببتها حبًّا مفرطًا شديدًا، فسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبني بكلمة، وأسمع مِن فيها لفظةً غير ما يقع في الحديث الظاهر إلى كل سامع بأبلغ السَّعي؛ فما وصلت من ذلك إلى شيء البتة. فلعهدي بمُصطنع كان في دارنا لبعض ما يصطنع له في دُور الرؤساء، تجمَّعتْ فيه

دخلتُنا ودخلة أخي رحمه الله من النساء ونساء فتياننا ومن لاثَ بنا مِن خَدَمنا، ممن يخفُّ موضعه ويلطفُ محله، فلبثن صدرًا من النهار ثم تنقَّلنَ إلى قصة كانت في دارنا مشرفة على بستان الدار، ويطلع منها على جميع قرطبة وفُحوصها، مفتحة الأبواب. فصرن ينظرن من خلال الشراجيب وأنا بينهن، فإني لأذكر أني كنت أقصد نحو الباب الذي هي فيه أُنسًا بقربها، مُتعرِّضًا للدنو منها، فما هو إلا أن تراني في جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره في لُطف الحركة، فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذي صارت إليه، فتعود إلى مثل ذلك الفعل مِن الزوال إلى غيره.

وكانت قد علمتْ كَلَفي بها، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه لأنهن كن عددًا كثيرًا، وإذ كلهن يتنقَّلن من باب إلى باب لسبب الاطِّلاع من بعض الأبواب على جهات لا يُطَّلع من غيرها عليها واعلم أن قيافة النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مُدلج في الآثار ثم نزلن إلى البستان، فرغب عجائزنا وكرائمنا إلى سيدتها في سماع غنائها، فأمرتها، فأخذت العود وسوَّته بخَفَر وخَجَل لا عهدَ لي بمثله، وإن الشيء يتضاعف حُسنُه في عين مُستحسنه، ثم اندفعت تغني بأبيات العباس بن الأحنف حيث يقول:

إِنّي طَرِبْــتُ إِلَى شَمْــسٍ إِذَا غَرَبَــتْ   كَانَــتْ مَغَارِبُهَــا جَــوْفَ المَقَاصِــيرِ
شَمْــسٌ مُمَثَّلَــةٌ فِي خُلْــقِ جَارِيَــةٍ   كَــأَنَّ أَعْطَافَهَــا طَــيُّ الطَّــوَامِيرِ
لَيْسَــتْ مِــنَ الإِنْــسِ إِلَّا فِي مُنَاسَــبَةٍ   وَلَا مِــنَ الجِــنِّ إِلَّا فِي التَّصَــاوِيرِ
فَالوَجْــهُ جَــوْهَرَةٌ، وَالجِسْــمُ عَبْهَــرَةٌ   وَالــرِّيحُ عَنْبَــرَةٌ، وَالكُــلُّ مِــنْ نُــورِ

كَأَنَّهَـا حِـينَ تَخْطُـو فِي مَجَاسِـدِهَا   تَخْطُو عَلَى البِيضِ أَوْ حَـدِّ القَـوَارِيرِ

فلعمري لكأن المِضراب إنما يقع على قلبي، وما نسيت ذلك اليوم ولا أنساه إلى يوم مفارقتي الدنيا. وهذا أكثر ما وصلت إليه من التمكُّن من رؤيتها وسماع كلامها.

ثم انتقل أبي رحمه الله من دُورنا المحدثة بالجانب الشرقي من قرطبة في ربض الزاهرة إلى دورنا القديمة في الجانب الغربي من قرطبة ببلاط مغيث في اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمَّد المهدي بالخلافة، وانتقلت أنا بانتقاله، وذلك في جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، ولم تنتقل هي بانتقالنا لأمور أوجبت ذلك، ثم شُغلنا بعدَ قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء أرباب دولته، وامتُحنَّا بالاعتقال والترقيب والإغرام الفادح والاستتار، وأرْزَمَت الفتنة وألقت باعها وعمَّت الناس، وخَصَّتنا إلى أن تُوفِّي أبي الوزير رحمه الله ونحن في هذه الأحوال بعد العصر يومَ السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام اثنين وأربعمائة.

واتصلت بنا تلك الحال بعده إلى أن كانت عندنا جنازة لبعض أهلنا فرأيتها، وقد ارتفعت الواعية، قائمةً في المأتم وسط النساء في جملة البواكي والنوادب. فلقد أثارت وَجدًا دفينًا، وحرَّكت ساكنًا، وذكرتني عهدًا قديمًا، وحُبًّا تليدًا، ودهرًا ماضيًا، وزمنًا عافيًا، وشهورًا خوالي، وأخبارًا بوالي، ودهورًا فواني، وأيامًا قد ذهبت، وآثارًا قد دثرت، وجدَّدت أحزاني، وهيَّجت بلابلي، على أني كنت في ذلك النهار مُرزأً مُصابًا من وجوه، وما كنت نسيت ولكن زاد الشجا، وتوقَّدت اللوعة، وتأكد الحزن، وتضاعف

الأسف، واستجلب الوجد ما كان منه كامنًا فلبَّاه مجيبًا، فقلت قطعةً، منها:

يُبَكِّــي لِمَيــتٍ مَــاتَ وَهْــوَ مُكَــرَّمٌ وَلَلْحَــيُّ أَوْلَى بِالــدُّمُوعِ الــذَّوَارِفِ

فَيَا عَجَبًا مِنْ آسِفٍ لِامْرِئٍ ثَـوَى وَمَـا هَـوُ لِلْمَقْتُـولِ ظُلْمًـا بِآسِـفِ

ثم ضرب الدهرُ ضربانَه وأُجلينا عن منازلنا وتغَلَّب علينا جند البربر، فخرجتُ عن قرطبة أول المحرم سنة أربعٍ وأربعمائة، وغابت عن بصري بعد تلك الرؤية الواحدة ستة أعوام وأكثر، ثم دخلت قرطبة في شوال سنة تسع وأربعمائة، فنزلت على بعض نسائنا فرأيتها هنالك، وما كدت أن أميزها حتى قيل لي هذه فلانة. وقد تغير أكثر محاسنها، وذهبت نَضارتها، وفنيت تلك البهجة، وغاض ذلك الماء الذي كان يُرى كالسيف الصقيل والمرآة الهندية، وذبُل ذلك النوار الذي كان البصر يقصد نحوه متنورًا، ويرتاد فيه متخيرًا، وينصرف عنه متحيرًا.

فلم يبقَ إلا البعض المُنبئ عن الكل، والخبر المخبر عن الجميع، وذلك لقلة اهتبالها بنفسها، وعدمها الصيانة التي كانت غُذيت بها أيام دولتنا وامتداد ظلنا، ولتبذلها في الخروج فيما لا بُد لها منه مما كانت تُصان وتُرفع عنه قبل ذلك. وإنما النساء رياحين متى لم تُتعاهد نقصت، وبنية متى لم يُهتبل بها استُهدمت؛ ولذلك قال من قال: إن حسن الرجال أصدق صدقًا، وأثبت أصلًا، وأعتق جودةً؛ لصبره على ما لو لقي بعضَه وجوهُ النساء لتغيَّرت أشد التغير، مثل الهجير والسموم والرياح واختلاف الهواء وعدم الكنّ. وإني لو نِلْتُ منها أقل وصل، وأنستْ لي بعض الأنس

لخُولطتُ طربًا، أو لمُتُّ فرحًا، ولكن هذا النفار الذي صبَّرني وأسلاني.

وهذا الوجه من أسباب السلو صاحبه في كلا الوجهين مَعذور وغير ملوم؛ إذ لم يقع تثبُّت يوجب الوفاء، ولا عهد يقتضي المُحافظة، ولا سلَف ذمام، ولا فرط تصادف يُلام على تضييعه ونسيانه.

ومنها جفاء يكون من المحبوب، فإذا أفرط فيه وأسرف وصادف من المحب نفسًا لها بعض الألفة والعزة تسلَّى، وإذا كان الجفاء يسيرًا منقطعًا، أو دائمًا، أو كبيرًا منقطعًا؛ احتمل وأغضى عليه، حتى إذا كثر ودام فلا بقاء عليه، ولا يُلام الناسي لمَن يُحبُّ في مثل هذا.

ومنها الغدر، وهو الذي لا يحتمله أحد، ولا يُغضي عليه كريم، وهو المسلاة حقًّا، ولا يلام السالي عنه على أي وجه كان، ناسيًا أو متصبِّرًا، بل اللائمة لاحقة لمن صبر عليه. ولولا أن القلوب بيد مُقلِّبها لا إله إلا هو، ولا يكلَّف المرءُ صرفَ قلبه، ولا إحاطة استحسانه، لولا ذاك لقلت إن المُتصبِّر في سلوِّه مع الغدر يكاد أن يستحق الملامة والتعنيف.

ولا أدْعَى إلى السلُوِّ عند الحُرِّ النفسِ وذوي الحفيظة والسريِّ السجايا من الغدر، فما يصبر عليه إلا دنِيء المروءة، خسيس النفس، نَذْل الهمة، ساقط الأنفة.

ثم سبب ثامن، وهو لا من المُحب ولا من المحبوب، ولكنه من الله تعالى؛ وهو اليأس، وفروعه ثلاثة: إما موت، وإما بَيَنٌ لا يُرجَى معه أوبة، وإما عارض يدخل على المتحابَّين بعلة الحب التي من أجلها وَثِق المحبوبُ فيغيرها.

وكل هذه الوجوه من أسباب السلو والتصبُّر، وعلى المحب الناسي في هذا الوجه المُنقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة من الغَضاضة والذم واستحقاق اسم اللوم والغدر غيرُ قليل، وإن لليأس لعملًا في النفوس عجيبًا، وثلجًا لحرِّ الأكباد كبيرًا. وكل هذه الوجوه المذكورة أولًا وآخرًا فالتأني فيها واجب، والتربُّص على أهلها حسن، فيما يمكن فيه التأني ويصح لديه التربص، فإذا انقطعت الأطماع، وانحسمت الآمال، فحينئذٍ يقوم العذر.

فجميع فصول هذا الباب كما ترى ثمانية؛ منها ثلاثة هي من المحب، اثنان منها يذم السالي فيهما على كل وجه؛ وهما الملل والاستبدال، وواحد منها يذم السالي فيه ولا يذم المُتصبِّر؛ وهو الحياء، كما قدمنا، وأربعة من المحبوب، منها واحد يذم الناسي فيه ولا يذم المُتصبِّر؛ وهو الهجر الدائم، وثلاثة لا يذم السالي فيها على أي وجه كان، ناسيًا أو متصبرًا؛ وهي النفار والجفاء والغدر، ووجه ثامن، وهو من قِبَل الله عز وجل؛ وهو اليأس إما بموت أو بَينٍ أو آفةٍ تزمن. والمتصبر في هذه معذور.

وعني أخبرك أني جُبِلتُ على طبيعتين لا يهنئني معهما عيش أبدًا، وإني لأبرم بحياتي باجتماعهما، وأودُّ التثبُّت من نفسي أحيانًا لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما، وهما: وفاء لا يشوبه تلوُّن قد استوت فيه الحضرة والمغيب، والباطن والظاهر، تولده الألفة التي لم تَعزف بها نفسي عمَّا دريتُه، ولا تتطلع إلى عدم من صحبته، وعزة نفس لا تَقرُّ على الضيم، مهتمَّة لأقل ما يرد عليها من تغير المعارف، مؤثرة للموت عليه.

فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو إلى نفسها، وإني لأجفى

فأحتمل، وأستعمل الأناة الطويلة، والتلوُّم الذي لا يكاد يُطيقه أحد، فإذا أفرط الأمر وحَمِيت نفسي تصبَّرت وفي القلب ما فيه.

ومما يُشبه ما نحن فيه، وإن كان ليس منه، أن رجلًا من إخواني كنتُ أحللتُه من نفسي محلَّها، وأسقطت المئونة بيني وبينه، وأعددته ذخرًا وكنزًا، وكان كثير السمع من كل قائل، فدبَّ ذو النميمة بيني وبينه، فحاكوا له وأنجح سعيُهم عنده، فانقبض عما كنتُ أعهده، فتربَّصت عليه مدة في مثلها أوب الغائب، ورضى العاتب، فلم يزدد إلا انقباضًا؛ فتركته وحاله.

باب الموت

وربما تزايد الأمر ورقَّ الطبع وعظم الإشفاق فكان سببًا للموت ومفارقة الدنيا، وقد جاء في الآثار: من عشق فعفَّ فمات فهو شَهيد.

ولقد حدَّثني أبو السريِّ عمار بن زياد صاحبُنا عمن يثق به، أن الكاتب ابن قزمان امتُحن بمحبة أسلم بن عبد العزيز، أخي الحاجب هاشم بن عبد العزيز، وكان أسلم غايةً في الجمال، حتى أضجره لما به، وأوقعه في أسباب المنية. وكان أسلم كثيرَ الإلمام به، والزيارة له، ولا علم له بأنه أصل دائه، إلى أن تُوفِّي أسفًا ودنفًا.

قال المُخبر: فأخبرتُ أسلم بعد وفاته بسبب علَّته وموته فتأسَّف وقال: هلَّا أعلمتني؟ فقلت: ولِمَ؟ قال: كنتُ والله أزيد في صلته وما أكاد أفارقه، فما عليَّ في ذلك ضرر. وكان أسلم هذا من أهل الأدب البارِع والتفنُّن، مع حظٍّ من الفقه وافر، وذا بصارة في الشعر، وله شعر جيد، وله معرفة بالأغاني وتصرفها، وهو صاحب تآليف في طرائق غناء زِرياب وأخباره؛ وهو ديوان عجيب جدًّا. وكان أحسن الناس خَلقًا وخُلقًا، وهو والد أبي الجعد الذي كان ساكنًا بالجانب الغربي من قرطبة.

وأنا أعلم جاريةً كانت لبعض الرؤساء فعزف عنها لشيء بلغه في جِهتها لم يكن يوجب السخط، فباعها، فجزعت لذلك جزعًا شديدًا وما فارقها النُّحول والأسف، ولا بان عن عينها الدمع إلى أن سلت وكان ذلك سبب موتها ولم تَعِش بعد خروجها عنه إلا أشهرًا ليست بالكثيرة. ولقد

أخبرتني عنها امرأة أثق بها أنها لقيتها وهي قد صارت كالخيال نُحولًا ورقّةً، فقالت لها: أحسب هذا الذي بك من محبَّتك لفلان؟ فتنفَّست الصُّعَداء، وقالت: والله لا نسيتُه أبدًا وإن كان جفاني بلا سبب. وما عاشت بعد هذا القول إلا يسيرًا.

وأنا أخبرك عن أبي بكر أخي وكان متزوجًا بعاتكة بنت قند، صاحب الثغر الأعلى أيام المنصور أبي عامر مُحَّد بن عامر، وكانت التي لا مرمَى وراءها في جمالها وكريم خلالها، ولا تأتي الدنيا بمثلها في فضائلها، وكانا في حدِّ الصبا وتمكُّن سلطانه تُغضب كلَّ واحد منهما الكلمةُ التي لا قَدْرَ لها، فكانا لم يزالا في تغاضب وتعاتب مدة ثمانية أعوام، وكانت قد شفَّها حُبُّه وأضناها الوَجد فيه وأنحلها شدةُ كلَفِها به حتى صارت كالخيال المتوسم دنفًا، لا يُلهيها من الدنيا شيء، ولا تُسَرُّ من أموالها على عَرْضها وتكاثرها بقليل ولا كثير إذا فاتها اتفاقُه معها وسلامتُه لها، إلى أن تُوفِّي أخي رحمه الله في الطاعون الواقع بقُرطبة في شهر ذي القعدة سنة إحدى وأربعمائة، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، فما انفكت منذ بانَ عنها من السقم الدَّخيل والمرض والذبول إلى أن ماتت بعده بعام في اليوم الذي أكمل هو فيه تحت الأرض عامًا. ولقد أخبرتني عنها أمها وجميع جواريها أنها كانت تقول بعده: ما يُقوّي صبري ويُمسِك رمقي في الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته إلا سُروري وتيقُّني أنه لا يَضُمُّه وامرأةً مضجعٌ أبدًا، فقد أمنتُ هذا الذي ما كنت أتخوَّف غيره، وأعظم آمالي اليومَ اللحاق به.

ولم يكن له قَبلَها ولا معها امرأة غيرها، وهي كذلك لم يكن لها غيره، فكان كما قدَّرت غفر الله لها ورضي عنها.

وأما خبر صاحبنا أبي عبد الله مُحَمَّد بن يحيى بن مُحَمَّد بن الحسين التميمي، المعروف بابن الطنبي، فإنه كان كأنه قد خُلق الحُسن على مثاله، أو خلق من نفس كل من رآه، لم أشاهد له مثلًا حُسنًا وجَمالًا وخُلقًا، وعِفَّةً وتصاوُنًا وأدبًا، وفَهمًا وحِلمًا ووفاءً، وسؤددًا وطهارةً وكرمًا، ودماثةً وحلاوةً ولَباقةً، وإغضاءً وعقلًا ومروءةً، وديْنًا ودرايةً وحِفْظًا للقرآن والحديث والنحو واللغة، وشاعرًا مُفلقًا، حسن الخط، وبليغًا مُفَنّنًا، مع حظ صالح من الكلام والجدل، وكان من غلمان أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي أستاذي في هذا الشأن.

وكان بينه وبين أبيه اثنا عشر عامًا في السن، وكنت أنا وهو متقاربين في الأسنان، وكنا أليفين لا نفترق، وخِدنين لا يجري الماء بيننا إلا صفاءً، إلى أن ألقت الفتنة جِرانَها، وأرخت عَزاليها، ووقع انتهاب جُند البربر منازلَنا في الجانب الغربي بقرطبة ونزولهم فيها وتقلبت بي الأمور إلى الخروج عن قُرطبة وسُكنى مدينة المريَّة، فكنا نتهادى النظم والنثر كثيرًا، فكُنَّا على ذلك إلى أن انقطعت دولةُ بني مروان وقُتل سليمان الظافر أمير المؤمنين، وظهرت دولة الطالبية، وبُويع علي بن حمود الحسني، المسمى بالناصر، بالخلافة، وتغلَّب على قرطبة وتملَّكها، واستمر في قتاله إياها بجيوش المتغلبين والثوار في أقطار الأندلس.

حكاية

لم أزل أسمعها عن بعض ملوك البرابر، أن رجلًا أندلسيًّا باع جاريةً، كان يَجِد بها وَجْدًا شديدًا، لفاقةٍ أصابته، من رجل من أهل ذلك البلد، ولم يظن بائعُها أن نفسه تتبعها ذلك التتبُّعَ، فلما حصلت عند المُشتري كادت نفس الأندلسي تخرج، فأتى إلى الذي ابتاعها منه وحكَّمه في ماله أجمع وفي نفسه، فأبى عليه، فتحمَّل عليه بأهل البلد فلم يُسعف منهم أحد، فكاد عقله أن يذهب، ورأى أن يتصدَّى إلى الملك، فتعرض له وصاح، فسمعه، فأمر بإدخاله، والملك قاعد في علِّيَّة له مُشرِفة عالية فوصل إليه، فلما مَثُل بين يديه أخبره بقصته واسترحمه وتضرَّع إليه، فرقَّ له الملكُ فأمر بإحضار الرجل المبتاع فحضَر، فقال له: هذا رجل غريب، وهو كما تراه، وأنا شفيعُه إليك. فأبى المُبتاع وقال: أنا أشد حُبًّا لها منه، وأخشى إن صرفتها إليه أن أستغيث بك غدًا وأنا في أسوأ من حالته. فعرض له الملك وَمَن حواليه من أموالهم، فأبى ولجَّ واعتذر بمحبته لها، فلما طال المجلس ولم يَرَوْا منه البتة جُنوحًا إلى الإسعاف قال للأندلسي: يا هذا، ما لك بيدي أكثر مما ترى، وقد جهدتُ لك بأبلغ سَعي، وهو تراه يعتذر بأنه فيها أحب منك، وأنه يخشى على نفسه شرًّا مما أنت فيه، فاصبر لما قضى الله عليك. فقال الأندلسي: فما لي بيدك حيلة؟ قال له: وهل ها هنا غير الرغبة والبذل، ما أستطيع لك أكثر.

فلما يَئِس الأندلسي منها جمع يديه ورجليه وانصب من أعلى العلية

إلى الأرض، فارتاع الملك وصرخ، فابتدر الغلمان من أسفل، فقُضي أنه لم يتأذَّ في ذلك الوقوع كبيرَ أذًى، فصُعد به إلى الملك، فقال: ماذا أردت بهذا؟ فقال:

أيها الملك، لا سبيل لي إلى الحياة بعدها. ثم همَّ أن يرميَ نفسه ثانيةً، فمُنع، فقال الملك: الله أكبر، قد ظهر وجه الحُكم في هذه المسألة. ثم التفت إلى المشتري فقال: يا هذا، إنك ذكرتَ أنك أودُّ لها منه، وتخاف أن تصير في مثل حاله. فقال: نعم. قال: فإن صاحبك هذا أبدى عنوان محبته وقذف بنفسه يريد الموت لولا أن الله عز وجل وقاه، فأنت قُم فصحّحِ حبك وترامَ من أعلى هذه القصبة كما فعل صاحبك، فإن متَّ فبأجلك، وإن عشتَ كنت أولى بالجارية إذ هي في يدك، ويمضي صاحبك عنك، وإن أبَيْتَ نَزعتُ الجارية منك رغمًا ودفعتُها إليه.

فتمنَّع ثم قال: أترامى. فلما قرب من الباب ونظر إلى الهويِّ تحته رجع القَهقَرى، فقال له الملك: هو والله ما قلت. فهمَّ ثم نَكل، فلما لم يقدم قال له الملك: لا تتلاعب بنا، يا غلمان، خذوا بيديه وارموا به إلى الأرض. فلما رأى العزيمة قال: أيها الملك، قد طابت نفسي بالجارية. فقال له: جزاك الله خيرًا. فاشتراها منه ودفعها إلى بائعها، وانصرفا.

باب قبح المعصية

قال المصنف: وكثير من الناس يُطيعون أنفسهم ويعصون عقولهم، ويَتبعون أهواءهم، ويرفضون أديانهم، ويتجنَّبون ما حضَّ الله تعالى عليه ورتَّبه في الألباب السليمة من العِفَّة وترك المعاصي ومُقارعة الهوى، ويخالفون الله ربَّهم، ويوافقون إبليس فيما يُحبه من الشهوة المُعْطِبَة، فيواقعون المعصية في حبهم.

وقد علمنا أن الله عز وجل ركَّب في الإنسان طبيعتين متضادتين؛ إحداهما لا تُشير إلا بخير، ولا تحُضُّ إلا على حسن، ولا يُتَصوَّر فيها إلا كل أمر مَرْضيٍّ، وهي العقل، وقائده العدل.

والثانية ضدٌّ لها، لا تشير إلا إلى الشهوات، ولا تقود إلا إلى الردى، وهي النفس، وقائدها الشهوة، والله تعالى يقول: إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ، وكنَّى بالقلب عن العقل فقال: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ، وقال تعالى: حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ. وخاطب أولي الألباب. فهاتان الطبيعتان قُطبان في الإنسان، وهما قُوتان من قُوى الجسد الفعَّال بهما، ومطرحان من مَطارِح شُعاعات هذين الجوهرين العجيبين الرفيعين العُلويين؛ ففي كل جسد منهما حظُّه على قدر مُقابلته لهما في تقدير الواحد الصمد، تقدَّست أسماؤه، حين خَلَقه وهيَّأه، فهما يتقابلان أبدًا ويتنازعان دأبًا، فإذا غلب العقلُ النفسَ ارتدع الإنسان، وقمَع عوارضه المَدخولة واستضاء بنور الله واتبع العدل، وإذا غلبت النفسُ

العقلَ عميت البصيرة، ولم يصحَّ الفرقُ بين الحسن والقبيح، وعَظُم الالتباس، وتردَّى في هُوَّة الرَّدى ومَهواة الهَلَكة، وبهذا حَسُن الأمر والنهي، ووجب الاكتمال، وصحَّ الثواب والعقاب، واستُحق الجزاء.

والروح واصل بين هاتين الطبيعتين، ومُوصِّل ما بينهما، وحامل الالتقاء بهما. وإن الوقوف عند حدِّ الطاعة لمعدوم إلا بطُول الرياضة، وصحة المعرفة، ونفاذ التمييز، ومع ذلك اجتناب التعرض للفِتَن ومُداخلة الناس جملة، والجلوس في البيوت، وبالحريّ أن تقع السلامة المضمونة، أو يكون الرجل حَصورًا لا أرب له في النساء، ولا جارحة له تُعينه عليهن قديمًا. ووَرَد: من وُقي شرَّ لَقْلقه وقَبْقبه وَذبْذبه، فقد وُقي شَرَّ الدنيا بحذافيرها. واللقلق: اللسان، والقبقب: البطن، والذبذب: الفرج.

وإني لأسمع كثيرًا ممن يقول: الوفاء في قمع الشهوات في الرِّجال دون النساء. فأُطيلُ العجب من ذلك، وإنَّ لي قولًا لا أحول عنه: الرجال والنساء في الجنوح إلى هذين الشيئين سواء، وما رجل عرضت له امرأة جميلة بالحُبِّ وطال ذلك ولم يكن ثَمَّ من مانعٍ إلا وقع في شَرَك الشيطان، واستهوتْه المعاصي، واستفزَّه الحرص، وتَغوَّله الطمع، وما امرأة دعاها رجل بمثل هذه الحالة إلا وأمكنتْه، حتمًا مَقضيًّا، وحكمًا نافذًا لا محيد عنه البتة.

ولقد أخبرني ثقةٌ صدق من إخواني من أهل التَّمام في الفقه والكلام والمعرفة، وذو صلابة في دينه، أنه أحب جاريةً نبيلةً أديبةً ذات جمال بارع، قال: فعرضتُ لها فنفرتْ، ثم عرضتُ فأبتْ، فلم يزل الأمر يطول وحبُّها يزيد وهي لا تُطيع البتة، إلى أن حملني فرط حبي لها مع عَمَى الصِّبَى على

أن نذرتُ أني متى نلتُ منها مرادي أن أتوب إلى الله توبةً صادقةً. قال: فما مَرَّت الأيام والليالي حتى أذعنت بعد شماس ونفار. فقلت له: أبا فلان، وفيتَ بعهدك؟ فقال: إي والله. فضحكتُ.

وذكرتُ بهذه الفَعلة ما لم يزل يُتداول في أسماعنا من أن في بلاد البربر التي تجاوز أندلسنا يتعهد الفاسق على أنه إذا قضى وطره ممن أراد أنْ يتوب إلى الله، فلا يُمنع من ذلك، ويُنكرون على من تعرَّض له بكلمة ويقولون له: أتحرم رجلًا مسلمًا التوبة؟ قال: ولعهدي بها تبكي وتقول: والله لقد بلَّغتني مبلغًا ما خَطَر قطُّ لي ببالٍ، ولا قدرتُ أن أجيب إليه أحدًا.

ولست أُبعد أن يكون الصلاح في الرجال والنساء موجودًا، وأعوذ بالله أن أظن غير هذا، وإني رأيت الناس يَغلطون في معنى هذه الكلمة أعني الصلاح غلطًا بعيدًا. والصحيح في حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هي التي إذا ضُبطت انضبطت، وإذا قُطعت عنها الذرائع أمسكت، والفاسدة هي التي إذا ضُبطت لم تَنضبط، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التي تُسَهِّل الفواحش تحيَّلت في أن تتوصل إليها بضروب من الحيل، والصالح من الرجال من لا يُداخل أهل الفسوق، ولا يتعرَّض إلى المناظر الجالبة للأهواء، ولا يرفع طرفه إلى الصور البديعة التركيب، والفاسق من يعاشر أهل النقص، وينشُر بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة، ويتصدى للمشاهد المؤذية، ويحب الخلوات المهلكات، والصالحانِ من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرماد لا تحرق من جاورها إلا بأن تُحَرَّك، والفاسقانِ كالنار المشتعلة تحرق كل شيء.

وأما امرأة مهملة ورجل متعرض فقد هلكا وتلفا؛ ولهذا حُرِّم على المسلم الالتذاذ بسماع نغمة امرأة أجنبية، وقد جُعلت النظرة الأولى لك والأخرى عليك. وقد قال رسول الله ﷺ: من تأمل امرأة وهو صائم حتى يرى حَجم عظامها فقد أفطر. وإن فيما ورد من النهي عن الهوى بنصِّ التنزيل لشيئًا مقنعًا، وفي إيقاع هذه الكلمة أعني الهوى اسمًا على معانٍ، واشتقاقها عند العرب، وذلك دليل على ميل النفوس وهويِّها إلى هذه المقامات، وإن المتمسك عنها مُقارِع لنفسه، مُحارب لها.

وشيء أصفه لك تراه عِيانًا، وهو أني ما رأيت قط امرأة في مكانٍ تُحسُّ أن رجلًا يراها أو يسمع حسَّها إلا وأحدثت حركةً فاضلةً كانت عنها بمعزل، وأتت بكلام زائد كانت عنه في غُنية، مخالفَينِ لكلامها وحركتها قبل ذلك، ورأيت التهمُّم لمخارجِ لفظها وهيئة تقلُّبها لائحًا فيها ظاهرًا عليها لا خفاء به، والرجال كذلك إذا أحسوا بالنساء.

وأما إظهار الزينة وترتيب المشي وإيقاع المزح عند خُطور المرأة بالرجل، واجتياز الرجل بالمرأة؛ فهذا أشهر من الشمس في كل مكان، والله عز وجل يقول: قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ، وقال تقدَّست أسماؤه: وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ. فلولا علم الله عز وجل برقة إغماضهن في السعي لإيصال حُبهن إلى القلوب، ولُطف كيدهن في التحيُّل لاستجلاب الهوى، لما كشف الله عن هذا المعنى البعيد الغامض الذي ليس وراءه مرمًى، وهذا حد التعرُّض فكيف بما دونه!

ولقد اطلعت من سرِّ معتقد الرجال والنساء في هذا على أمر عظيم،

وأصل ذلك أني لم أحسن قط بأحد ظنًّا في هذا الشأن، مع غَيرة شديدة رُكّبت فيَّ.

وحدَّثنا أبو عمرو أحمد بن مُحَمَّد بن أحمد، حدَّثنا أحمد، حدَّثنا مُحَمَّد بن علي بن رفاعة، حدَّثنا علي بن عبد العزيز، حدَّثنا أبو عبيد القاسم بن سلام عن شيوخه، أن رسول الله ﷺ قال: الغَيْرة من الإيمان. فلم أزل باحثًا عن أخبارهن، كاشفًا عن أسرارهن، وكن قد أنسنَ منّي بكتمان، فكنَّ يُطْلِعنني على غوامض أمورهن. ولولا أن أكون مُنبِّهًا على عوراتٍ يُستعاذ بالله منها لأوردتُ من تنبههن في السرِّ ومكرهن فيه عجائب تُذهل الألباب.

وإني لأعرف هذا وأتقنه، ومع هذا يعلم الله أني بريء الساحة، سليم الأديم، صحيح البشرة، نقي الحجزة، وإني أقسم بالله أجلَّ الأقسام أني ما حللت مِئزري على فرج حرام قط، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنا مذ عقلتُ إلى يومي هذا، والله المحمود على ذلك، والمشكور فيما مضى، والمستعصَم فيما بقي.

ولقد ضمني المبيت ليلةً في بعض الأزمان عند امرأة من بعض معارفي مشهورة بالصلاح والخير والحزم، ومعها جارية من بعض قراباتها من اللاتي قد ضمتها معي النشأة في الصبا، ثم غبت عنها أعوامًا كثيرةً، وكنت تركتها حين أعصرت، ووجدتُها قد جرى على وجهها ماءُ الشباب ففاض وانساب، وتفجَّرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحيرت، وطلعتْ في سماء وجهها نجوم الحُسن فأشرقت وتوقَّدت، وانبعث في خدَّيها أزاهير الجمال

فتمَّت واعتمت، فأتت وكانت من أهل بيت صباحة، وقد ظهرت منها صورة تُعجز الوُصَّاف، وقد طَبَّق وصفُ شبابها قرطبة، فبتُّ عندها ثلاث ليالٍ متوالية، ولم تُحجب عنّي على جاري العادة في التربية.

فلعمري لقد كاد قلبي أن يصبوَ ويثوب إليه مَرفوض الهوى، ويعاوده منسيُّ الغزل. ولقد امتنعتُ بعد ذلك من دخول تلك الدار خوفًا على لُبي أن يزدهيه الاستحسان. ولقد كانت هي وجميع أهلها ممن لا تتعدَّى الأطماعُ إليهن، ولكن الشيطان غير مأمون الغوائل، وفي ذلك أقول:

لَا تُتْبِـــعِ الـــنَّفْسَ الهَـــوَى   وَدَعِ التَّعَـــــرُّضَ لِلْمِحَـــــنْ
إِبْلِـــيسُ حَـــيٌّ لَمْ يَمُـــتْ   وَالعَـــــيْنُ بَابٌ لِلْفِـــــتَنْ

وإني لأعلم فتًى من أهل الصيانة قد أُولع بهوًى له، فاجتاز بعضُ إخوانه فوجده قاعدًا مع مَن كان يُحب، فاستجلبه إلى منزله، فأجابه إلى منزله بامتثال المسير بعده، فمضى داعيه إلى منزله وانتظره حتى طال عليه التربُّص فلم يأتِه، فلما كان بعد ذلك اجتمع به داعيه فعدَّد عليه وأطال لَومه على إخلافه موعده، فاعتذر وورَّى. فقلت أنا للذي دعاه: أنا أكشف عُذره صحيحًا من كتاب الله عز وجل إذ يقول: مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ، فضحِك مَن حضَر.

ولي كلمتان قلتُهما مُعرّضًا بل مُصرّحًا برجل من أصحابنا كنَّا نعرفه كلنا، من أهل الطلب والعناية والورع وقيام الليل واقتفاء آثار النُّسَّاك وسلوك مذاهب المتصوفين القدماء باحثًا مجتهدًا، وقد كنَّا نتجنَّب المزاح بحضرته، فلم يمضِ الزمنُ حتى مكَّن الشيطانَ من نفسه، وفتك بعد لباس

النساك، وملك إبليس من خِطامه فسوَّل له الغرور، وزيَّن له الويل والثبور، وأجرَّه رَسَنه بعد إباء، وأعطاه ناصيته بعد شماس، فخَبَّ في طاعته وأوضع، واشتُهر بعد ما ذكرته في بعض المعاصي القبيحة الوضرة. ولقد أطلتُ ملامه، وتشدَّدت في عَذله؛ إذ أعلن بالمعصية بعد استتار، إلى أن أفسد ذلك ضميره عليَّ، وخبثتْ نيَّتُه لي، وتربص بي دوائر السوء. وكان بعض أصحابنا يساعده بالكلام استجرارًا إليه، فيأنس به ويُظهر له عداوتي، إلى أن أظهر الله سريرته، فعلمها البادي والحاضر، وسقط من عيون الناس كلِّهم بعد أن كان مقصدًا للعلماء، ومُنتابًا للفضلاء، ورَذَل عند إخوانه جملةً.

أعاذنا الله من البلاء، وسترنا في كفايته، ولا سلبنا ما بنا من نعمته. فيا سَوأتاه لمن بدأ بالاستقامة ولم يعلم أن الخذلانَ يَحل به، وأن العصمة ستفارقه. لا إله إلا الله، ما أشنع هذا وأفظعه! لقد دهمته إحدى بنات الحرس، وألقت عصاها به أم طَبق؛ مَن كان لله أولًا ثم صار للشيطان آخرًا.

وكان هذا المذكور من أصحابنا قد أحكم القراءات إحكامًا جيدًا، واختصر كتاب الأنباري في الوقف والابتداء اختصارًا حسنًا أُعجب به من رآه من المقرئين، وكان دائبًا على طلب الحديث وتقييده، والمتولي لقراءة ما يسمعه على الشيوخ المحدِّثين، مثابرًا على النسخ مجتهدًا به، فلما امتُحن بهذه البليَّة مع بعض الغِلمان رَفَض ما كان مُعتنيًا وباع أكثر كُتبه، واستحال استحالةً كليةً. نعوذ بالله من الخذلان. وقُلتُ فيه كلمةً، وهي التالية للكلمة التي ذكرت منها في أول خَبره ثم تركتها.

وقد ذكر أبو الحُسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الرويدي في كتاب اللفظ والإصلاح: أن إبراهيم بن سيَّار النظَّام رأس المعتزلة، مع علوِ طبقته في الكلام وتمكُّنه وتحكُّمه في المعرفة، تسبَّب إلى ما حرم الله عليه من فتًى نصراني عشقه؛ بأن وضع له كتابًا في تفضيل التثليث على التوحيد. فيا غوثاه! عياذك يا رب من توجُّ الشيطان ووقوع الخذلان!

وقد يعظم البلاء وتَكلب الشهوة ويهون القبيح ويرقُّ الدين حتى يرضى الإنسان في جنب وصوله إلى مراده بالقبائح والفضائح، كمثل ما دهم عُبيد الله بن يحيى الأزدي المعروف بابن الحريري؛ فإنه رضي بإهمال داره وإباحة حريمه والتعريض بأهله طمعًا في الحصول على بغيته من فتًى كان عَلِقه نعوذ بالله من الضلال، ونسأله الحياطة وتحسين آثارنا وإطابة أخبارنا حتى لقد صار المسكين حديثًا تَعمرُ به المحافل، وتصاغ فيه الأشعار، وهو الذي تسميه العرب الدَّيوث، وهو مشتق من التدييث، وهو التسهيل، وما بعد تسهيل من تَسمح نفسه بهذا الشأن تسهيل، ومنه بعير مديَّث؛ أي مذلل. ولعمري إن الغيرة لتُوجَد في الحيوان بالخِلْقة، فكيف وقد أكَّدتها عندنا الشريعة، وما بعد هذا مصاب. ولقد كنت أعرف هذا المذكور مَستورًا إلى أن استهواه الشيطان. ونعوذ بالله من الخِذلان. ولقد سمعته في المسجد الجامع يستعيذ بالله من العصمة كما يُستعاذ به من الخذلان.

ولقد رأيتُ امرأة كانت مودتها في غير ذات الله عزَّ وجلَّ، فعهِدتُها أصفى من الماء، وألطف من الهواء، وأثبت من الجبال، وأقوى من الحديد، وأشد امتزاجًا من اللون في الملون، وأنفذ استحكامًا من الأعراض في

الأجسام، وأضوأ من الشمس، وأصح من العيان، وأثقب من النجم، وأصدق من كدر القطا، وأعجب من الدهر، وأحسن من البر، وأجمل من وجه أبي عامر، وألذ من العافية، وأحلى من المُنى، وأدنى من النفس، وأقرب من النسب، وأرسخ من النقش في الحجر، ثم لم ألبث أن رأيت تلك المودة قد استحالت عداوة أفظع من الموت، وأنفذ من السهم، وأمر من السقم، وأوحش من زوال النعم، وأقبح من حلول النقم، وأمضى من عقم الرياح، وأضر من الحمق، وأدهى من غلبة العدو، وأشد من الأسر، وأقسى من الصخر، وأبغض من كشف الأستار، وأنأى من الجوزاء، وأصعب من معاناة السماء، وأكبر من رؤية المصاب، وأشنع من خرق العادات، وأقطع من فجأة البلاء، وأبشع من السم الزعاف، وما لا يتولد مثله عن الذحول والترات، وقتل الآباء وسبي الأمهات. وتلك عادة الله في أهل الفسق القاصدين سواه، الآمِّين غيره، وذلك قوله عز وجل: يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي.

فيجب على اللبيب الاستجارة بالله مما يُورط فيه الهوى؛ فهذا خلفٌ مولى يوسف بن قمقام القائد المشهور، كان أحد القائمين مع هشام بن سليمان بن الناصر، فلما أُسر هشام وقُتل وهرب الذين وازروه، فَرَّ خلفٌ في جُملتهم ونجا، فلما أتى القسطلات لم يُطق الصبر عن جارية كانت له بقرطبة فكرَّ راجعًا، فظفر به أمير المؤمنين المهدي، فأمر بصلبه. فلعهدي به مصلوبًا في المرج على النهر الأعظم وكأنه القُنفذ من النبل.

وهذان الفصلان وإن لم يكونا من جنس الباب فإنهما شاهدان على ما يقود إليه الهوى من الهلاك الحاضر الظاهر، الذي يستوي في فهمه العالم

والجاهل، فكيف من العِصمة التي لا يفهمها من ضَعُفت بصيرته! ولا يقولن امرؤ: خلوت؛ فهو وإن انفرد فبمرأًى ومسمعٍ من علّام الغيوب؛ الذي يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ، ويَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، ومَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا، وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، وهو عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، ويَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ، وقال: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ.

وليعلم المُستخفُّ بالمعاصي، المُتَّكلُ على التسويف، المُعرِض عن طاعة ربه، أن إبليس كان في الجنة مع الملائكة المقرَّبين، فلمعصيةٍ واحدةٍ وقعتْ منه استحقَّ لعنة الأبد وعذاب الخلد، وصُيِّر شيطانًا رجيمًا، وأُبعد عن رفيع المكان. وهذا آدم ﷺ بذنبٍ واحدٍ أُخرج من الجنة إلى شقاء الدنيا ونَكدها، ولولا أنه تلقى من ربه كلماتٍ وتاب عليه لكان من الهالكين. أفترى هذا المُغتر بالله رَبِّه وبإملائه ليزداد إثمًا يظُنُّ أنه أكرم على خالقه من أبيه آدم الذي خلقه بيده، ونَفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته الذين هم أفضل خلقه عنده؟

أو عقابه أعز عليه من عقوبته إياه؟ كلا، ولكن استعذاب التمني، واستيطاء مركب العجز، وسخف الرأي قائدةٌ أصحابَها إلى الوبال والخزي، ولو لم يكن عند ركوب المعصية زاجر من نهي الله تعالى، ولا حامٍ من غليظ عقابه؛ لكان في قَبيح الأحدوثة عن صاحبه، وعظيم الظلم الواقع في نفس

فاعله، أعظم مانع، وأشد رادع لمن نظر بعين الحقيقة، واتَّبع سبيل الرشد، فكيف والله عز وجل يقول: وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا.

وإن في الزنا من إباحة الحريم، وإفساد النسل، والتفريق بين الأزواج الذي عظَّم الله أمره، ما لا يهون على ذي عقل، أو من له أقل خَلاق، ولولا مكان هذا العُنصر من الإنسان، وأنه غير مأمون الغلبة لما خفَّف الله عن البِكْرين وشدد على المحصنين. وهذا عندنا وفي جميع الشرائع القديمة النازلة من عند الله عز وجل حُكمًا باقيًا لم يُنسخ ولا أُزيل، فيترك الناظر لعباده الذي لم يَشغله عظيم ما في خَلقه، ولا يحيف قدرته كبير ما في عوالمه عن النظر لحقير ما فيها، فهو كما قال عز وجل: الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، وقال: يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا، وقال: عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ.

وإن أعظم ما يأتي به العبد هَتْك ستر الله عز وجل في عباده، وقد جاء في حكم أبي بكر الصديق ﷺ في ضربه الرجلَ الذي ضَمَّ صبيًّا حتى أمنَى ضربًا كان سببًا للمنيَّة، ومن إعجاب مالك – رحمه الله – باجتهاد الأمير الذي ضرب صبيًّا مكَّن رجلًا من تَقبيله حتى أمنَى الرجل، ضربه إلى أن مات، ما يُنسي شدة دواعي هذا الشأن وأسبابه. والتزيُّد في الاجتهاد، وإن كنا لا نراه، فهو قول كثيرٍ من العلماء يتبعه على ذلك عالَمٌ من الناس.

وأما الذي نذهب إليه فالذي حدَّثناه الهمداني، عن البلخي، عن البخاري، عن الفربري، عن البخاري قال: ثنا يحيى بن سليمان: ثنا ابن وهب قال: أخبرني عمرو أن بكيرًا حدثه عن سليمان بن يسار، عن عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه، عن أبي بردة الأنصاري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يُجلد فوق عشرة أسواط إلا في حَدٍّ من حدود الله عز وجل.»

باب فضل التعفف

ومن أفضل ما يأتيه الإنسان في حُبِّه التعفُّفُ وتركُ ركوب المعصية والفاحشة، وألَّا يرغب عن مُجازاة خالقه له بالنعيم في دار المقامة، وألَّا يعصيَ مولاه المتفضل عليه الذي جعله مكانًا وأهلًا لأمره ونهيه، وأرسل إليه رسله، وجعل كلامه ثابتًا لديه، عنايةً منه بنا وإحسانًا إلينا. وإن من هام قلبُه وشُغل باله واشتد شوقه وعظُم وَجْده، ثم ظفر فرام هواه أن يغلب عقله وشهوته، وأن يقهر دينه.

ثم أقام العدل لنفسه حصنًا، وعلم أنها النفس الأمارة بالسوء، وذكَّرها بعقاب الله تعالى، وفكَّر في اجترائه على خالقه وهو يراه، وحذَّرها من يوم المعاد والوقوف بين يدي الملك العزيز الشديد العقاب الرحمن الرحيم الذي لا يحتاج إلى بينة، ونظر بعين ضميره إلى انفراده عن كل مُدافع بحضرة علَّام الغيوب "يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ، يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا، يوم وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا، يوم وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا، يوم الطامة الكبرى، يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى * فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى، واليوم الذي

قال الله تعالى فيه: وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا". عندها يقول العاصي: يا ويلَتى! مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا فكيف بمن طُوي قلبه على أحرَّ مِن جَمر الغضى، وطُوي كشْحُه على أحدَّ مِن السيف، وتجرَّع غصصًا أمَرَّ من الحنظل، وصرف نفسه كرهًا عما طمعت فيه، وتيقَّنت ببلوغه وتهَيَّأت له ولم يَحُلْ دونها حائل، لحريٌّ أن يُسرَّ غدًا يوم البعث، ويكون من المقربين في دار الجزاء وعالم الخلود، وأنْ يأمنَ رَوعات القيامة وهَول المَطلع، وأن يُعوِّضه الله من هذه القَرحة الأمنَ يوم الحشر.

حدَّثني أبو موسى هارون بن موسى الطبيب قال: رأيت شابًّا حَسن الوجه من أهل قُرطبة قد تعبَّد ورَفض الدنيا، وكان له أخ في الله قد سقطت بينهما مَئونة التحفُّظ، فزاره ذات ليلة وعزم على المبيت عنده، فعرضت لصاحب المنزل حاجة إلى بعض معارفه بالبُعد عن منزله، فنهض لها على أن ينصرف مُسرعًا، ونزل الشاب في داره مع امرأته، وكانت غايةً في الحسن وتِربًا للضيف في الصِّبا، فأطال رب المنزل المقام إلى أن مشى العَسس ولم يُمكنه الانصراف إلى منزله، فلما علمت المرأة بَفوات الوقت، وأن زوجها لا يمكنه المجيء تلك الليلة، تاقت نفسها إلى ذلك الفتى، فبرزت إليه ودَعتْهُ إلى نفسها، ولا ثالث لهما إلا الله عز وجل، فهمَّ بها ثم ثاب إليه عقلُه وفكَّر في الله عز وجل، فوضع إصبعه على السراج فتفقَّع، ثم قال: يا نفس، ذوقي هذا، وأين هذا من نار جهنم؟ فهال المرأة ما رأت، ثم عاودَتْه فعاودَتْه الشهوة المركَّبة في الإنسان، فعاد إلى الفعلة الأولى،

فانبلج الصباح وسبَّابته قد اصطلمتها النار.

أفتظن بلغ هذا من نفسه هذا المبلغ إلا لفَرط شهوةٍ قد كلبت عليه؟ أو ترى أن الله تعالى يُضيّع له المقام؟ كلا، إنه لأكرم من ذلك وأعلم.

ولقد حدَّثتني امرأة أثق بها أنها عَلِقها فتًى مثلها في الحُسن وعَلِقته، وشاع القولُ عليهما، فاجتمعا يومًا خاليَين، فقال: هلمي نحقق ما يقال فينا. فقالت: لا والله، لا كان هذا أبدًا. وأنا أقرأ قول الله: الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ. قالت: فما مَضى قليل حتى اجتمعا في حلال.

وما أقدر في هذه الأخبار وهي صحيحة إلا أحد وجهين لا شك فيهما: إما طبع قد مال إلى غير هذا الشأن، واستحكمت معرفته بفضل سواه عليه؛ فهو لا يُجيب دواعيَ الغزل في كلمةٍ ولا كلمتين، ولا في يومٍ ولا يومين، ولو طال على هؤلاء الممتحنين ما امتحنوا به لجادت طباعُهم، وأجابوا هاتف الفِتنة، ولكن الله عصمهم بانقطاع السبب المُحرك؛ نظرًا لهم وعلمًا بما في ضمائرهم من الاستعاذة به من القبائح، واستدعاء الرشد. لا إله إلا هو.

وإما بصيرة حضرت في ذلك الوقت، وخاطر تجرد انقمعت به طوالع الشهوة في ذلك الحين، لخيرٍ أراد الله عز وجل لصاحبه. جعلنا الله ممن يخافه ويرجوه. آمين.

حدثنا أحمد بن مُحَمَّد بن الجسور، عن أحمد بن مطرف، عن عبيد الله بن يحيى، عن أبيه، عن مالك، عن حبيب بن عبد الرحمن الأنصاري، عن

حفص بن عاصم، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «سبعة يُظلهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبُه معلَّق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا على ذلك وتفرَّقا، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق صدقة فأخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه.»

وإني أذكر أني دُعيت إلى مجلسٍ فيه بعض من تَستحسن الأبصارُ صورتَه، وتألف القلوب أخلاقه للحديث والمجالسة دون منكرٍ ولا مكروه، فسارعت إليه، وكان هذا سَحَرًا، فبعد أن صليت الصبح وأخذت زِيِّي طَرقني فكرٌ فسَنَحتْ لي أبياتٌ، ومعي رجل من إخواني فقال لي: ما هذا الإطراق؟ فلم أُجِبْه حتى أكملتها، ثم كتبتها ودفعتها إليه، وأمسكت عن المسير حيث كنتُ نويتُ.

ولو لم يكن جزاء ولا عقاب ولا ثواب لوجب علينا إفناء الأعمار، وإتعاب الأبدان، وإجهاد الطاقة، واستنفاد الوسع، واستفراغ القوة في شكر الخالق الذي ابتدأنا بالنعم قبل استئهالها، وامتنَّ علينا بالعقل الذي به عرَفناه، ووهبَنا الحواسَّ والعلم والمعرفة ودقائق الصناعات، وصرف لنا السموات جارية بمنافعها، ودبرنا التدبير الذي لو ملكنا خلقنا لم نَهتدِ إليه، ولا نظرنا لأنفسنا نظره لنا، وفضَّلَنا على أكثر المخلوقات، وجعلَنا مستودع كلامه ومستقر دينه، وخلق لنا الجنة دون أن نستحقها، ثم لم يرضَ لعباده أن يدخلوها إلا بأعمالهم لتكون واجبةً لهم، قال الله تعالى: جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، ورشدَنا إلى سبيلها، وبَصَّرنا وجه ظِلِّها، وجعل غاية إحسانه إلينا

وامتنانه علينا حقًّا من حقوقنا قبله، ودينًا لازمًا له، وشكرَنا على ما أعطانا من الطاعة التي رزقنا قواها، وأثابنا بفضله على تفضُّله.

هذا كرم لا تهتدي إليه العقول، ولا يمكن أن تُكيِّفَه الألباب. ومن عرف ربَّه ومقدار رضاه وسخطه هانت عنده اللذات الذاهبة والحطام الفاني، فكيف وقد أتى من وعيده ما تقشعرُّ لسماعه الأجساد، وتذوب له النفوس، وأورد علينا من عذابه ما لم يَنتهِ إليه أمل! فأين المذهب عن طاعة هذا المَلِك الكريم! وما الرغبة في لذة ذاهبة لا تذهب الندامة عنها، ولا تفنى التباعة منها، ولا يزول الخزي عن راكبها! وإلى كم هذا التمادي وقد أسمعنا المنادي، وكأن قد حدَا بنا الحادي إلى دار القرار، فإما إلى جنة وإما إلى نار! ألا إن التثبط في هذا المكان لهو الضلال المُبين.

هنا أعزك الله انتهى ما تذكَّرته إيجابًا لك، وتقمنًا لمسرَّتك، ووقوفًا عند أمرك، ولم أمتنع أن أورد لك في هذه الرسالة أشياء يذكرها الشعراء ويُكثرون القول فيها، موفيات على وجوهها، ومفردات في أبوابها، ومنعمات التفسير، مثل الإفراط في صفة النحول، وتشبيه الدموع بالأمطار، وأنها تروي السفار، وعدم النوم البتة، وانقطاع الغذاء جملةً، إلا أنها أشياء لا حقيقة لها، وكذب لا وجه له، ولكل شيء حدٌّ، وقد جعل الله لكل شيء قدرًا. والنحول قد يَعظُم ولو صار حيث يصفونه لكان في قوام الذرة أو دونها، ولخرج عن حد المعقول، والسهر قد يتصل لياليَ، ولكن لو عدم الغذاء أسبوعين لهلك، وإنما قلنا: الصبر عن النوم أقل من الصبر عن الطعام؛ لأن النوم غذاء الروح، والطعام غذاء الجسد، وإن كانا يشتركان في كليهما، ولكنا حكينا على الأغلب. وأما الماء فقد رأيت أن ميسورًا

البنَّاء جارَنا بقُرطبة يصبر عن الماء أسبوعين في حمارَّة القيظ، ويكتفي بما في غذائه من رطوبة.

وإنما اقتصرت في رسالتي على الحقائق المعلومة التي لا يمكن وجود سواها أصلًا، وعلى أني قد أوردت من هذه الوجوه المذكورة أشياء كثيرة يُكتفى بها لئلا أخرج عن طريقة أهل الشعر ومذهبهم. وسيرى كثير من إخواننا أخبارًا لهم في هذه الرسالة مكنّيًا فيها من أسمائهم على ما شرطنا في ابتدائها. وأنا أستغفر الله تعالى مما يكتبه المَلَكان، ويُحصيه الرقيبان من هذا وشبهه، استغفار من يعلم أن كلامه من عمله، ولكنه إن لم يكن من اللغو الذي لا يؤاخذ به المرء، فهو من اللَّمم المَغْفوِّ، وإلا فليس من السيئات والفواحش التي يتوقع عليها العذاب. وعلى كل حال فليس من الكبائر التي ورد النص فيها.

وأنا أعلم أنه سيُنكر عليَّ بعضُ المُتعصبين عليَّ تأليفي لمثل هذا ويقول: إنه خالف طريقته، وتجافى عن وجهته، وما أُحِلُّ لأحد أن يَظنَّ فيَّ غير ما قصدته، قال الله عز وجل: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ.

وبالجملة فإني لا أقول بالمراياة، ولا أنسك نسكًا أعجميًّا، ومن أدَّى الفرائض المأمور بها، واجتنب المحارم المنهي عنها، ولم ينسَ الفضل فيما بينه وبين الناس، فقد وقع عليه اسم الإحسان، ودعني مما سوى ذلك، وحسبي الله.

والكلام في مثل هذا إنما هو مع خلاء الذرع وفراغ القلب، وإن حفظ شيء وبقاء رسم وتذكر فائت لمثل خاطري لعجبٌ على ما مضى ودهمني؛ فأنت تعلم أن ذهني متقلب، وبالي مهصر بما نحن فيه من نَبْوِ الديار، والخلاء عن الأوطان، وتغيُّر الزمان، ونكبات السلطان، وتغير الإخوان، وفساد الأحوال، وتبدُّل الأيام، وذهاب الوفر، والخروج عن الطارف والتالد، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد، والغربة في البلاد، وذهاب المال والجاه، والفكر في صيانة الأهل والولد، واليأس عن الرجوع إلى موضع الأهل، ومدافعة الدهر، وانتظار الأقدار. لا جعلنا الله من الشاكين إلا إليه، وأعادنا إلى أفضل ما عودنا.

وإن الذي أبقى لَأكثرُ مما أخذ، والذي ترك أعظم من الذي تحيَّف، ومواهبه المحيطة بنا ونعمه التي غمرتنا لا تُحد، ولا يُؤدَّى شُكرُها، والكلُّ مِنَحه وعطاياه، ولا حُكمَ لنا في أنفسنا ونحن منه، وإليه منقلبنا. وكل عارية فراجعة إلى مُعيرها. وله الحمد أولًا وآخرًا، وعودًا وبدءًا، جعلنا الله وإياك من الصابرين الشاكرين الحامدين الذاكرين.

آمين، آمين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وآله وصحبه وسلم تسليمًا.

الفهرس